على الضفة المنسية من الحرب

حكايا سوريّة

على الضفة المنسية من الحرب

على الضفة المنسية من الحرب

حكايا سوريّة

منشورات
الشبكة السورية للإعلام المطبوع

اسم الكتاب: على الضفة المنسية من الحرب

المؤلفون: مجموعة صحفيين سوريين

الطبعة: الأولى – تشرين الثاني 2015

توزيع: الشبكة السورية للإعلام المطبوع

snp.syria@gmail.com

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجهات الشبكة

الفهرس

تقديم 7
الطابق الرابع 11
حلب وهوى النسوان ياخيو 21
ذاكرة امرأة في الأربعين 27
سأكون يوما ما أريد 33
الضحية رقم 43 39
على الضفة المنسية من الحرب 47
ثرثرة 59
اللامنتمي 67
أحلام صغيرة 75
قف حاجز عسكري 84
في عيون عمر.. قصة ثورة 95
ولدت من جديد 103
جواز سفر 109
لا تسألني عن ديني 115
ماذا غيرت فينا الثورة 125
مجرد دقيقة ولكن 135
ثورة الأنا 137

تقديم

الحنين هو استرجاع للفصل الأجمل في الحكاية

قد تنطبق هذه الكلمات في حدود واسعة على النصوص المعروضة ضمن هذا الكتاب أو "المشروع"، فهي بطريقة أو بأخرى تكتنز أوجاع وأحلام "الضمير الجمعي" لمن ما زالوا يؤمنون بحتمية العدالة.

ربما لن يجد القارئ وهو يطالع النصوص المعروضة هنا، وجبة أدبية دسمة تمتلك ما يكفي من أسس ومرتكزات الكتابة القصصية الاحترافية، لكنه سيجد -حتماً- شيئاً من صوته بين السطور.

باختصار هي محاولة -يانعة- لإعادة إنتاج الزمن كخطوة أولى نحو فك الحصار المطبق على الذاكرة، أو يمكن القول ببساطة هي محاولة إعادة خلق وتكوين اللحظة المعاشة في غلاف الماضي القريب، علها تنجح بمحاورة الواقع المليء بالفوضى تماشياً مع عبثيّة المستقبل المعلّق على مشجب المجهول حتى اللحظة.

دون أدنى شك لن يكون سهلاً ضمن المعطيات القيمية والأدبية الراهنة؛ الحديث مع الماضي، أو استنطاق المستقبل تفادياً لألغام الواقع. قطعاً ستكون مسألة الاستلقاء على سرير الذاكرة، وترجمتها أو تجريدها مما تكتنفه من رموز ومطلقات، إلى رؤى حبرية في إطار من ورق، أشبه بالعملية الانتحارية إلا أنه لا بد من المحاولة. وهو تماماً ما يمكن أن يُعَنْوِن هذا المشروع الصغير عله يكبر مع المقبل من أيام أو أحلام.

تبقى مسألة مدى اقتراب النصوص أو ابتعادها -لغوياً وأدبياً- من سياق الكتابة القصصية، خاضعة أولاً وقبل كل شيء لآراء وتقييمات النقاد بعد مراجعتهم لما هو معروض ضمن هذا المشروع، إلا أن الأهم في -غمار الأبعاد الإنسانية المغيبة للحدث الواقعي ومساراته المأساوية على الأرض- يكمن في وصول هذه النصوص لأكبر عدد ممكن من القراء علّنا نقف على حقيقة ما يحتاجه الناس الآن، إنسانياً على الأقل، في محاولة ربما للإجابة على عديد التساؤلات المعلّقة وأهمها:

إلى أي مدى نمتلك الآن القدرة والجرأة لترجمة "الرواية السورية" في سياقات أدبية بغض النظر عن النوع أو التسمية؟

ما الذي نريده أو نسعى لتوثيقة أدبياً ونحاول تسويقه إنسانياً من خلال هذه المشاريع؟

بأي لغة سنخاطب العالم محاولين إقناعه بأن ما يجري؛ جذره أساساً الرغبة في الحرية والتغيير؟

هل أصبحنا فعلاً أحراراً من الماضي "بلغته وقيمه ودوافعه" بما يمكننا حاليا من صياغة منظومة قيمية ثقافية مختلفة، تتماشى مع متطلبات الواقع الراهن؟

هل أصبحنا نمتلك قدرة الوقوف على مسافة واحدة من معطيات وتفاصيل الحدث، بحيث نستطيع ترجمة الكامن فيه؛ قصصاً إنسانية حقيقية واقعية دون خجل أو محاباة أو خوف من قول ما كان سابقاً ممنوعاً على القول والتفكير؟

بالتأكيد، من الظلم تحميل هذه المشاريع القصصية مسؤولية الإجابة على تلك التساؤلات وغيرها، ولكن بات من الضروري خلق نقاش وحوار عام على مستوى النخب -بالحد الأدنى- للبدء بتناول مثل هذه القضايا المعلقة، وهي بكل تأكيد بحاجة للإجابة والتأطير، ليس فقط للتأكيد بأننا نمتلك القدرة، وإنما للخروج من مربّع التيه الذي نغرق فيه جميعاً دون أي معطيات واضحة على مستوى الرؤى والمشاريع الصغيرة منها أو الكبيرة.

قد يكون طموحاً مبالغاً فيه؛ أن ينجح هذا الكتاب في خلق مثل ذلك النقاش أو الحوار الموسع، لكن ربما يبدو واقعياً اعتباره حجراً سينجح في تحريك المياه الراكدة والقضايا الساكنة. فليس من الإنصاف إلزام هذه التجربة الشابة، البحث أو الخوض في مسارات القضايا الأكثر تعقيداً في مجتمعاتنا على مدى أكثر من نصف قرن، وقد يكون الأكثر صواباً الآن البحث في سبل دعم وتمكين مثل هذه التجارب وتطويرها، بحيث يمكنها فعلاً الانطلاق نحو نبش ما نخاف منه اجتماعياً وفكرياً ومن ثم إعادة إنتاج هوياتنا الثقافية والإنسانية كأفراد وأوطان.

الخروج عن أطر وتعاليم الماضي، فيما يتعلق بطريقة التعاطي مع المنتجات الثقافية بأبوابها الواسعة، هو الآن الغاية الأكبر للجميع، وهو ما يتطلب قدرة كبيرة للتمرد على مشاعر الحنين التي تحكم غالبية من يتعاطى مع الحدث السوري؛ أدبياً وإنسانياً لمحاولة صياغة رواية قادرة على إقناع

الجميع، والقفز بخيال القارئ نحو أبعاد جمالية مختلفة تستطيع بشكل أو بآخر بناء المرتكزات الأولى لامتلاك القدرة على مخاطبة الآخر، والابتعاد عن تقليدية مخاطبة ذواتنا كمن يتحدث إلى نفسه، وبالتالي الإفلات من فخ الاستسلام للماضي حنيناً أو ذاكرة، لاعتبارات بسيطة تفيد بأن الماضويين لا يسعهم فهم وتجسيد معطيات وأولويات الحاضر، ومن لا يمتلك الحاضر لن يكون جزءاً من المستقبل.

قصي عمامة

الطابق الرابع

طوال سنوات، بقي الشهر الذي عشته في مشفى المواساة بدمشق، يئنّ، ويُريد أن يصبح نصاً..

في اليوم الأول قالوا:

- أبوك مصاب بقرحة معدة!

في اليوم الثاني قالوا:

- ماء في الرئتين!

في الثالث:

- لا لا، ثقب في البنكرياس!

في الخامس:

- ضعف في القلب!

هكذا كنت أتلقى نشرة أحوال الأب، على باب قسم الإنعاش في المشفى الحكومي، حيث نتكدس نحن الفقراء، ذوي جيران الموت، على باب القسم المحصن بالمستخدَمين الأفجاج والممرضين الذي يشربون الشاي بزي يملؤه دم العمليات، هؤلاء أسياد هنا، لا أحد من الممكن أن يتكرم بالسماح لك بالدخول إلى حيث يستلقي مريضك إلا هم. يخرج الطبيب المبتدئ صغير السن من الإنعاش، هناك أمل، يقول، والأمل ضعيف يقول طبيب آخر، لكن الله كبير يقول المستخدم لي وأنا أبكي في دهليز المشفى، أيام مرت وأنا أشاهد أبي يتورم، الرجل الأسمر النحيل بات سميناً، لكن كله ماء. تطمئنني ممرضة تعشق "كاظم" ويحلو لها أن تسمعه في غرفة إنعاش المشفى العام، ما أخبار أبي؟.. أسأل طبيباً ذا أسنان لامعة إلى درجة الاستفزاز، يهملني..

أصمتُ وأتابع انتظاري وجوعي الذي أصبح مزمناً في المشفى.

في المهجع التاسع من الطابق الرابع في مشفى المواساة بدمشق، سأنام على الأرض الليلة، بين أناس لا يجمعهم شيء إلا الفقر الذي أجبرهم على دخول المشفى العام، على الأرض وعند الحادية عشرة ليلاً، يشبه المهجع كراجات النقل، أحاديث مستمرة بين المرضى والمرافقين لهم، يدخنون ويشربون الشاي ويتبادلون النكات والآلام والانتظار، أستلقي تحت سرير مريض عجوز ليس لديه مرافق، قرب المبولة الشخصية الخاصة به، فالرجل مصاب بكسر في الساق، والممرضون ثبتوا له مبولة يتناوب أولاد الحلال على إفراغها كلما امتلأ كيسها القريب مني، أنام كميت، ولا توقظني أحاديث المرضى ولا ضحكاتهم ولا صراخ المتألم منهم حين يطلب مسكناً.

عند السادسة صباحاً يدخل المستخدم إلى المهجع ممسكاً بسطل ومقشة ويلقي مياه السطل كيفما اتفق، أتبلل، أستيقظ، وأغادر المهجع، وجه المستخدم يحمل لؤم الأرض، إذا لم أستيقظ من الرشة الأولى ستلاحقني الممسحة في يده، لا قهوة هذا الصباح أيضاً، وعليّ التوجه إلى غرفة الإنعاش فربما أستطيع الدخول إلى سرير أبي.

في المصعد أسأل نفسي: هل لا زال حياً؟ ثم أطمئن، لو مات كنت سأعلم.

على سرير الإنعاش أبي ليس أبي، لم يستيقظ الرجل منذ خمسة أيام، وضعوا له خرطوماً في فمه يقال له "المنفسة"، مما شوش على التعبير الوحيد على وجهه، هل هذا ابتسام أم ألم؟... لا أدري، فمه نصفه مغلق ونصفه مفتوح وعيناه مغمضتان نصف إغماضة لألاحظ بريقهما، لم أشاهد طوال حياتي شعر ذقنه بهذا الطول، مرّ ما يزيد عن عشرين يوماً منذ دخوله المشفى. تصدح فيروز في غرفة الإنعاش بينما تشرب ممرضة القهوة بشراهة، وتشرد في النافذة التي تطل على مفرزة الأمن العسكري في مدخل المشفى، أمسك يد أبي الغائب عن الوعي، وليس أمامي إلا أن أؤمن أنه يسمعني، فأهمس بأذنه بأي شيء، من المستحيل هنا حبس الدموع، ولماذا توفيرها أصلاً؟ بينما أنا أكثر اطمئناناً أمام غيبوبته، يدخل طبيب عام إلى غرفة الإنعاش، لم أكن قد تمكنت من الالتفات إليه حين بدأ يصيح عليّ، بأنه من الممنوع أن أكون هنا، وبدأ يطلب مني الخروج على الفور لأني خالفت الأوامر، لم يكن من الممكن على الإطلاق أن أسأل عن صحة أبي ومدى تقدم أو سوء حالته، سريعاً يسمع المستخدمون صوت الطبيب فيدخلون إلى غرفة الإنعاش ويتم اقتيادي كمجرم ضُبط يودّع أباً نصف ميت، هنا أنفجر أنا صراخاً وشتائم بوجه الطبيب الذي نصفه

دهن وثلثه نظارات طبية، والباقي منه غرور وثقة لا أساس لها، أُرمى في الدهليز، ولم يعد لصراخي الآن من معنى.
أمام غرفة العناية المركزة، تمرّ الأسّرة تحمل مرضى يدخلون ويخرجون من غرفة العمليات، تضحكني دموع المرافقين لمريض البحصة والزائدة، كأنهم يحتكرون المأساة!، شاهدت مراراً نجاح هذا النوع من العمل الجراحي وكيف أن المريض يخرج على قدميه تقريباً بعد أيام من مغادرة غرفة العمليات، فلم كل هذا العويل واللطم؟ يدهشني فقط، إعلان الوفاة، فحين يخرج الطبيب بالزي الميداني الأخضر المبرقع بالدم وكأنه ذبح نعجة شرسة للتو، ويأمر المستخدم أن يجهز القبو، أركز أنا على وجوه ذوي المريض، يخرج بعد ذلك الممرض ويعلن النبأ، كم من شخص علمت قبل ذويه بربع ساعة على الأكثر أنه قد قضى، كنت أملك السر القبيح لفترة من الزمن تكفي كي أشاهد أقارب المرحوم يتهامسون ويبتسمون، يتحدثون عبر الهاتف وأحياناً يخططون، قلقون لكن مطمئنون أن مريضهم لن يصل إلى الموت، كنت أراقب أول الصرخة، تتسع العين إلى أقصاها، سريعة عضلات الوجه وهي تنتقل من الاسترخاء إلى الانقباض وبالعكس، تُستخدم "كيف ولماذا" بكثرة، نادراً ما يفهم الأقارب من المرة الأولى، على الممرض أن يعيد لمرتين على الأقل أنه قد مات، تنهار النساء بشكل أسرع من الرجال، يغضب الرجال وقلة منهم يبكون سريعاً، والشبان هم من يسرعون إلى الهاتف لإبلاغ العائلة، تلوك الألسن اسم اللّه بمختلف الطرق، يتأخر دائماً الترحّم على الميت، عموماً لا أحد ممن شاهدتهم يفهم الموت سريعاً.
معاركي مع الأطباء لم تنقطع في غرفة الإنعاش، فقط طبيب مختص في التخدير، كان يتركني حراً في الحركة، كان يشرح لي أن الحالة صعبة

وسهلة ومعقدة وبسيطة، للحقيقة لم يكن طبيباً ماهراً، لكنه كان حقيقياً، كبرى معاركي كانت مع الطبيب الممتلئ بالدهون، كانت موقعة طرده لي وشتمي له لا تزال طازجة حين قابلته في الدهليز، قررت تحاشيه فلا مصلحة لي في استمرار القتال، لكنه حين أصبح قريباً مني قال لي: لا تفعلها ثانية يا "حباب"، قالها كأنني طفل صغير وتابع السير، انطلق لساني كاشفاً عن غضب لم أكن أدركه: واحد مثلك "حباب"، فرد الطبيب: قلت لك عيب يا "حباب"، هنا وأنا الذي لم أمارس رياضة القفز في حياتي، وجدت نفسي أثبُ كنمر، طرت من فوق بعض المارة، يداي تتموضعان لتحيطان برقبته، فيما تسبح قدماي خلفي، ووجهه يحمر كلما اقتربت منه، ارتطمنا بالأرض، حمَتُه وحمتني دهونه من كسر محتمل، لم أعد أستخدم صوتي، يداي حول رقبته والإبهامان يحاولان بشوق الالتقاء معاً، فيما هو يحاول التدحرج كي يقلب الموقف ويقلبني، ثبتت قدماي جسده الثقيل، لكني عدت للهواء من جديد وكأني أطير، هذه المرة عن طريق الرفع، عدد لا متناهٍ من المستخدمين والممرضين والممرضات تدخّلوا في المعركة ضدي، فتم رفعي عن الطبيب بنجاح، لينطلق لساني بكل أنواع الشتائم التي سمعتها ولم أستخدمها حتى اللحظة، أذكر أني كنت مبدعاً في تأليف نوع جديد من الشتائم، فلم تسلم شقيقة الطبيب وأمه وخالته من قدحي في شتيمة واحدة جامعة مانعة، وبينما أنا منشغل في الشتم، والمحاولة الفاشلة في الإفلات من كتلة الأيدي التي كانت تحيط بي، نقلت سريعاً إلى أيدي أكثر قوة، الأمن العسكري في المشفى تولاني وأخرجني من كل قسم الإسعاف.

حين دخلت أول مرة إلى المشفى الحكومي في ربيع 2003، شاهدت شاباً

يتناول طعامه بعد أن جلس على الأرض في الدهليز، كان يأكل بشراهة، ويبالغ في حجم اللقمة، يشرب عصيراً مع الشطيرة، مجرد من أي إحساس بكل هذا الألم، فيما تُسمع وبشكل واضح أصوات المتألمين وتتساقط منهم نقاط دم هنا، وسوائل دبقة هناك، أطفال تبكي ونساء تصرخ ورجال لا يُخجلها الألم، الشاب بلا أي أنفة في مكان تملؤه رائحة الأدوية والبول، أدنتُ الشاب طوال ساعات، اعتبرته حيواناً إلى أن جلست بجواره في اليوم الثاني عند وقت الغداء، ونافسته في حجم اللقمة، ففي المشفى تعتاد سريعاً على أشياء لن تفعلها إلا إن كنت فقيراً جداً.

ونحن الفقراء يَصعُب أن نفهم كل الإشارات التي يرسلها لنا المستخدم طلباً للرشوة، ربما لأنه يشير لشيء لا نملكه!، فحين نُطرد جميعاً كمرافقين من كامل الطابق الرابع، ونُترك على الدرج، لأن الأطباء يقومون بجولة على المرضى، يقف المستخدم على الباب الحديدي الكبير، يشعل السيجارة من السيجارة وينظر إلينا واحداً واحداً، أنا لم اكن أفهم أن خمسة وعشرين ليرة أدسها في يده، ستغير مزاجه ويدعني أعود إلى سرير أبي، كانت النساء يستخدمن الدعاء ويفشلن في العبور، الرجال تهدده أو تتملقه وتفشل في العبور، بينما تستطيع صبية عبر ابتسامة واعدة أن تفتح الباب وتدخل، كنت أنتظر لساعات حتى يسمح لنا بالعبور إلى المهاجع من جديد.

في آخر مرة عاد فيها أبي إلى الوعي قبل رحيله، امتلك حساً فكاهياً عالياً، رغم أن الطبيب قال لاحقاً إنها سكرات الموت، لكنني أريد أن أذكر طلبه الأخير على أنه دعابة أطلقها لا هذياناً من الألم، فحين دخلت إلى غرفة الإنعاش بفضل مستخدم أخبرني أنه استيقظ، كانت "المنفسة" قد أزيلت للتو من فمه، قليل من الدم على شفته.

– سألته: كيف أنت؟
– أجاب وعيناه تجولان في المكان: "منيح" .. كيف أنت؟
– قلت: جيد ... صمَتُ قليلاً فلم أجد ما أقوله الآن، أراقبه يتنفس بصعوبة ويسرق النظر إلى قدمه المكسورة والمثقّلة بكيس من حديد كي لا يحركها فيزيد من سوء الكسر، سألني:
– هل أجروا لي العملية؟
كان أبي قد أُدخل غرفة العمليات أربع مرات حتى الآن، الأولى منها من أجل كسر في عظم الفخذ، وثلاث مرات دخلها وخرج منها غائباً عن الوعي، لم يكن يعلم أن بطنه فتح ثلاث مرات في عشرة أيام لأسباب لم تُعرف حتى الآن، ويبدو أنه نسي العملية التي أجراها بكامل وعيه، أجبته أن العملية أجريت، صوتي كان مشبعاً بالدمع، ووجهي يسقط مني، وستارة الماء المالح منعتني من التركيز في وجهه، مسحت دمعي بكلتا يدي حين أدركت أنه لا يقرأ بكائي، قال لي فجأة وبحماس أنه يريد تناول الحلويات، كان دائم التعلق بكل شيء حلو المذاق من طعام ونساء وشعر وفن، أجبت سريعاً
– أي نوع تريد؟
– قال: ملوخية!
أصبح بكائي فاجراً وبلا حياء، أمسكت يده من جديد وقد انتفخت فلم تعد عظامها وعروقها البارزة تظهر، لا زال يتأمل المكان، وقلما ينظر إلي، هل يعرف من أنا؟ اقتربت منه وتركت قبلة على جبينه، ما إن رفعت رأسي والتقت عيناي بعينيه، حتى سألني:
– من أين تعيشون؟

كانت لحظات وعي عميقة لا تليق بما سبق، عاد ليقول:

- أمعكم مال؟

كان في جيبي حين حدثني أبي للمرة الأخيرة خمس عشرة ليرة وليس لي أي دخل، وهو يموت بين يدي، وأنا لا أدرك ذلك.

في الطابق الرابع المخصص لأمراض كسر العظم، اضطر القائمون على المشفى أن يدرجوا مريضاً بالسرطان في مهجعنا، بقية المرضى استقبلوه بالكثير من الإنكار، رجل في الأربعين مصاب بسرطان الحنجرة، معه زوجته الشابة وغير المتوازنة، صوتها عالٍ وصراخها كثير ولا تملك صبراً على سوء المعاملة، ولا مالاً تتجنب فيه هذا السوء، مريض سرطان الحنجرة يصدر أصواتاً عميقة ليتفاهم مع زوجته والمحيطين به، صوت نادر السماع، فلا هو آدمي ولا هو حيواني، وكأنه صوت من عالم سفلي، زوجته لا تعرف الصمت ولا تهجر البكاء بحالته السريعة التي لا دمع فيها، تئنّ كلما أنّ زوجها وتتحدث عنه للجميع وكأنه غير موجود، لا تفارقه ولا ترضى أن يبقى معه غيرها، لكنها دائمة الشكوى من مرضه، تكرهها في بداية سكناها للمهجع، لكن مع الوقت وبعد أن تعرف أن حالة الرجل في التنقل من سرير مشفى إلى سرير آخر قد تجاوزت العام، تتفهم مظاهر الجنون الأولى التي بدأت تظهر عليها، لدرجة جعل من السهل أن ترسم على وجهها ضحكة لأي دعابة سمجة تطلقها. كنتُ وهي نتقاسم السجائر ونجلس في دهليز الطابق الرابع بعد أن تطفأ الأضواء على المرضى، كان أبي لا يزال مريض كسر عظم فقط، وكان السرطان مختبئاً فيه، وظاهراً في جسد زوج صديقتي، كنا ندخن بشراهة حين قالت فجأة:

"لِيمت، ليمت الآن لقد تعبت...لكني أحبه...سأرتاح ويرتاح"

صوتها يختلف إيقاعه بين الجملة والجملة، هنا نسمع ضرباً قوياً يصدر من داخل المهجع، كان زوجها يضرب حديد السرير ليناديها، حين دخلنا إليه، كان الدم يملأ فمه، تصرخ هي كما العادة وتوقظ جميع المرضى، يسرع الممرض إلينا ويرفع الغطاء عن كل جسده، كان دمه قد غادر جسده وصبغ الملاءات، ومشى بعضه على الأرض، تحققت أمنية صديقتي بعد ساعات، لكنها بقيت نصف مجنونة.

في ليلته الأخيرة في المشفى قال لي طبيب خبير لم أشاهده من قبل، إن وضع أبي أفضل الآن وقد تجاوز مرحلة الخطر، كان انتظار جملة كهذه قد أصبح لا يطاق، أراحتني الجملة، وأتبعها الطبيب بأنه لا حاجة لبقائي هنا، فالجميع يسهرون على راحة أبي، علمت أنه يكذب، لكنني قررت أن أصدقه الليلة وأغادر المشفى فغداً أتخرج، ومشروعي لم ينته بعد، بضع ساعات حتى الصباح في قسم النحت ستساعدني على إنهاء المشروع.

في تلك الليلة كنت في المرسم الكبير لوحدي فجميع الطلبة أنهوا أعمالهم وغادروا، لم أعاشر مطلقاً خشب الزيتون بمثل هذه الدهشة، كان عملي الذي لم يعجب أحداً، يخبرني كيف أتحرك، يريد مني أن أزيل عنه الزائد من الخشب، كان يأمرني حيناً أن أركز هنا، ويطلب حيناً ويغمز حيناً، آلة القطع طيعة جداً، لا تخطئ هي ولا أخطئ أنا، رائحة النشارة كرائحة جسد امرأة تعشقها، وذراتها تلتصق بوجهي وكأنه عرض بطيء لمشهد حب، تدخل أوركسترا بكامل زيها الرسمي إلى رأسي، أنساب مع الخشب ولا أطيق مفارقته، كم يبدو سهلاً هذه الليلة أن تنحت وجهاً، يخدعك وتخدعه وتصدق أنه حي، وتقول له: أحبك، يضحك الوجه لي ويخبرني أن أحرره أكثر فكلينا لم يعد يطيق الاستتار، لست هنا وأنا هنا، قوة تحركني

الآن وتتنـزل كل سـكينة عرفهـا البشـر علـي، لا أشـتهي شـيئاً غيـر الاسـتمرار في مداعبـة هـذا الوجـه، ولا يهمنـي مـن منـا هـو السـيد، تلـك الليلـة أدركت أن النحـت عبـادة، في غرفـة الإنعـاش كان أبـي قد اسـتيقظ للمرة الأخيرة وحيداً وعـاد لنومـه، في ذات التوقيـت ولـد عملـي الـذي لـم يعجـب لجـان التحكيـم صباحـاً، ومـات أبـي ودخـل التـراب عصـراً.

قاسم البصري

حلب وهوى النسوان يا خيّو

تعبر عيونك نحو الشمال، لا في موسم هجرةٍ، ولا في ترحالٍ اعتاده المُتعبون من طينة البادية، لا تخلع عنك بيوت اللبِن والطين، ولا كمنجة طارق، ولا "كفريّات" رياض أحمد في ذاكرة الديريّين، لا تتوق سماع فرنسيٍّ يعزف القانون مع شدوان من أهل التصوّف في حلب، ولا تؤمن بتلخّص المدينة ببيت جدّك تحت القلعة، لا تشتاق النساء اللواتي فاجأهنّ ابن أقصى لعنة شرق البلاد .. يغازلهنّ كما لم يفعل عاشقٌ يبدو دمشقيّاً في تمثيليّة بثلاث حلقاتٍ يرقُّ لها من يلعن سماء أهل قرينته مع كلّ رشة ملحٍ زائدةٍ عن حاجة لسانه المسبّح دوماً بما بين قدمي أمّها وأختها وأخت الساعة التي لفتت فيها نظر أمّه

التي تُبصر فيه ما قد لا يُبصره عبد الباسط سيدا في الراحل الذي تتقيّأُ شبه الكلمات العربية المتأتّية من شبه فمه حين يلفظها .. رحمه اللّه.

تدخلها بعد غياب عام، تتفاجأ أنّ عشوائيّات االراموسة باتت جميلةً بعين الضيف الذي كان يحاول دوماً العبث بمفاتنها وهي تتمنّع، للمرّة الأولى تراكَ يوسف، ومدينةٌ بأكملها تقول لمن ترفّعت عن صحرائه هيت لك، سائق التكسي للمرّة الأولى أيضاً لا يسألك من أين جئت ليحسب كم تحتمل من "الخورفة"، فقد باتت حالة الطرق العسكريّة نشرةً أخرى في حصاد الحلبي أهمّ من المفاصلة،.. يشير بيده نحو "صلاح الدين".. هل تعرفها؟ فتجيب أنّك تحفظ عورات الدجاجات اللواتي كنت تأكلهنّ من أسياخ محلّات الشاورما الرخيصة فيها، تحدّثه كأنّما تصف له حبلك السريّ مع الدنيا..

كانت "صلاح الدين" حبلاً سريّاً يُطعمُك وأنت تراقب "بسطاته" كجنين، تحكي له عن "بسطة" بناطيل الجينز التي كانت تبيعك أناقة مشوارٍ مع حبيبةٍ بثلاثمئة ليرة، تحكي له عن تحديد ذقنك التي نبتت مؤخّراً بـ35 ليرة، تبادله الحديث كما لو يربطك بسائق الأجرة ما لا يربط الظالم بدمعةٍ على شال أرملةٍ قُتل زوجُها لأن الطيّار غضب من إقدامه على رفع "بوسط الكهرباء" عشرين مرّةً في ساعة شتاء،.

هنا اختلط الأمر على الطيار فقصفه، لسوء حظّ الرجل أنّه في المرّة العشرين نظر للأعلى وقال "يا ربّ السماء اقصف عمري لأرتاح" فظنّ الطيّار نفسه ربَّ السماء المعنيّ بدعوة ابن حيّ الصاخور، فقصف عمره وحيّه وأحلامه وقطةً كانت تتبعه أينما ذهب.

قبل حلول ليل المدينة التي لم تكن تنام إلا على الضيم، سابقاً تقودك

خطاك إلى حيّ الفرقان حيث "خبّصتِ لشبعتِ" تجلس داخل حرم جامعة حلب، بين الاقتصاد والسكن الجامعي، تدمدمُ ترتيلتين من شعر النوّاب "يا قاتلتي بكرامة خنجرك العربي.. أهاجر في القفر، وخنجرك الفضي بقلبي.. وأنادي عشقتني بالخنجر.. والهجر بلادي" لحظاتٌ وتأتي بلادك من غرفتها تسبقها روائح الـ"نينا ريتشي"، تقبّلُها قُبَلَ الآتي من السفر، تلك القبلة الوحيدة التي كنت شجاعاً بما يكفي لاختطافها في الشارع، تحكي لها عن "حلبك" التي تغيّرت، فتحكي لك عن ريف دمشق من حيث هي تتحدر كما يتساقط المنّ والسلوى في كوردستان العراق "يا شاوي"، فتقول لها "لست شاوياً"، وأنت الضائع دوماً بين الريف والمدينة، لا من الحضر أنت ولا من الشوايا، إلا أنّها تحبُّ سماء ربّك حتّى لو ذكّرتها أنّها كرديّةٌ بالكاد تحمل هويّةً صفراء أو حمراء لست تذكر، متى سنمارس الفاحشة يا صبيّة؟، تجيبك أن لا فاحشة بين العشاق، قل لي متى سنصلّي صلاة الجسد، ونزرع كلَّ مسامات جسدينا نجوماً، تقول لها لتغيظها لن أُقبّلك سوى عشر مرّات في الثانية، فتردُّ وفي كلّ مرةٍ "سنخربطب بالعدّ" عند القبلة التاسعة و"نبلّش العدّ" من جديد، وتوافق أنت المسكون بألف قصيدةٍ بكلِّ شطرٍ من قصيدة جسدها الملخّصة تماميّة معنى "امرأة".

تتذكّر كل تلك التفاصيل وتربكك حلب، تود لو أنّها امرأتك، تتخيّل أنك تنام معها لا فيها، رجلٌ يُضاجع مدينة بالحلال، ستكون أول من ينام معها بشرع الله، حلب اغتصبتها فُوّهة المدفع، واغتصبها تاجر الماء، اغتصبها صاحب مولدة "الأمبيرات"، سفاحاً أخذها نصفُ أبنائها، وذبحها النصف الآخر غسلاً للعار، هل تخيّل أحدٌ حلبيّاً لم "يتخسّل" قبل صلاة الجمعة، هل سمع أحدكم عن حلب يوماً أنّها تحبُّ البرغل والمجدّرة والمعكرونة،

هل تخيّلتَ حلب التي جئتها بالكاد ابن سبعة عشر وخرجت منها سبعينيّاً بعد خمس سنين، حلب التي ما تركت شارعاً فيها إلا خلّدته بامرأة، لا بدّ لك أن تبصق بوجه جميع من آذاها، وتصرخ أريدها كما كانت.. "أريدها حلب"، وأريد منها "هوى النسوان يا خيّو".

تقطع شرود العيون بالعيون بين حبيبين احتبستهما الذاكرة عند القبلة الأولى أو بمذاقها، تأخذها من يدها إلى حيث هي لا تدري، في نفس المقهى الذي اعتدته وألفته تجلسان، تُعيد على سمعك الكلام نفسه، ما أقذر هذا المكان!.. ثمّ تستدرك: لولاك حبيبي، النادل يعرفكما جيّداً، فيحضر فنجانين من فخّار تتطافح منهما القهوة على الصينيّة القديمة، لم يُغسلا منذ مدّةٍ بعيدة.. لا الفنجانان ولا الصينيّة، حدث مرّةً أن أتى بفنجانين مغسولين فرددتَهما، وتعلّم النادل أو توهّمت أنّه تعلّم حينها أنّ الانسان البهيميّ في كلِّ شيء يبدو أكثر بهيميّةً حين يترفّع عن شرب فنجانٍ سبقه إليه أحد... ترى كم فكّر هذا النادل حينها بغرابتك!

تصارحها أنّك ستغادر البلاد.. "اللّه ييسّرلك" تجيبُك وتحاول أن تبقى طبيعيّةً لولا حماقة دمعة عينها، تبرّرُ دون أن تطلبَ منك.. "ضاقت عليّ الدنيا هنا، أحسُّني وحيداً، لا أهل ولا أصدقاء ولا.." تقاطعك؛ وأنا كم قصيدةً قلتَ لي فيها أنّي دنياك! تقرّر كعادتك أن تخبّرها أنّك لا تحبُّ السّجال وتقول لها "الشعراء كاذبون"، تخرج من فورها، أنت لا تحركُ ساكناً،.. بعد نصف ساعة تعي فداحة الموقف، تتّصل بها دون جدوى، وإلى ليوم مازلت تتّصل.. أيضاً دون جدوى.

لا تودّع أحداً ليلتها، أنت الواصل حلب و"المغادرها" بيوم واحد.. تفكّر فيما لو وعت حبيبتك أنّك أتيت المدينة لتسرق منها قبلةً ثمّ تًسافر، وتقول لعلّها

الآن لا شيء أمامك سوى حفنة من ذكريات مشتركة، تحطّمها جميعاً، وتضع في جيب القميص من جهة فؤادك الميّتِ، خصلة شعرها التي بقيت لك منها ومن حلب ومن أصدقائك ومن حبيباتِك والشوارع، ثمّ تنام عابساً ليلتها، أو لا تنام، تأتي سيارة الأجرة التي كفل لك صاحبها حواجز الطريق لتقلّك إلى حتفك أو شيءٍ آخر يشبهُ العيش.

تفكّر في ما ستكتبُه عما هو بعد ذلك، وتخجل.. تغمد حروفك، ثم تنام في المنفى وحيداً سوى من خصلة شعرها.

رلو عيد

ذاكرة امرأة في الأربعين

قبل أن تستلم الليل، نظرت إلى بنصرها الأيمن باستغراب ثم تساءلت!

ما هذا؟ كيف؟ لماذا؟ وأمضت ليلتها تلك التي لم تك كسائر الليالي تقلب الوقت علّها تجد أجوبة تقنعها بما حصل..

هي فتاة لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها، ومازال حضورها يملك ما يكفي من براءة ستدفعها حتماً للتراجع عن قرارها لكنها أبت التخلي عن خطوتها القادمة، والتي قد تكون بداية نهايتها.

بدأ الفجر يطّل، بينما هي ترى الضوء يمر عبر نافذتها المطلة على سريرها، وبعد تأمل عميق، باغتها النعاس وحاولت أن تستسلم للنوم -هرباً ربما- من أسئلة كثيرة لم تعد تملك

قدرة للإجابة على أي منها. بعد صراع قصير بين الأرق والاحتمالات استيقظت والإرهاق يرسم ملامحها، بينما كثير من المهنئين بانتظارها.
هي لم تعرف من الحياة بعد، سوى مقاعد الدراسة، لم تشعر يوماً بمراهقتها، لم تختبر الحب، ولا تدرك كيف تكون الحياة بوجود رجل قربها. ولا تعلم ما الذي تريده من رجل هو الآن يقاسمها حياتها! تماماً كما لا يوجد تصور في مخيلتها كيف يجب أن يكون.
كانت تريد الرحيل فقط.. فهي دائماً ما كانت ترى نفسها مختلفة عن باقي أفراد العائلة التي تنتمي إليها.. نعم عائلة استثنائية، مختلفة، ميسورة.. لكن تحكمها التقاليد، أكثر ما ترفضه من مفاهيم وكان كافياً لتحسم خياراتها القادمة. لم تك مثقفة ثورية، أو تملك نظرة فلسفية عن معاني وأبعاد الحرية لكن صوتاً غامضاً في أعماقها كان يناديها وقررت أن تتبع نداء قلبها.
كل حواسها ترشدها إلى طرقات تختلف عن مسارات اعتادت عائلتها على العيش ضمن حدودها دون هوامش لأسئلة بسيطة حد السذاجة.
وهي.. قررت أن تقدم على خطوة الخطوبة من رجل لا تشعر شيئاً حياله. بل فقط لأنه ينتمي إلى عائلة أكثر تحرراً، وقد يكون بداية لتحقيق أحلامها، أو هكذا فكرت.
ليلة خطبتها كانت باردة لا تذكر منها سوى وجودها كدمية بين الجموع، ولا تذكر هل كانت حزينة أم سعيدة يومها!
دخلت حواسها في غيبوبة، فالفتاة التي لم تغادر بعد براعم طفولتها، شاخ قلبها بعد أن أبت الانسحاب مما بدأت به، إلى أن تم تحديد موعد الزفاف.

العائلة منهمكة بفرحها، وهـي مستسلمة لا تقوى على اتخاذ قرار بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، كي تكمل دراستها التي كانت متفوقة بها.

تزوجت إذاً.. نعم تزوجت من رجل لن يرهق مشاعره بالتفكير بأن من هي في متناوله الآن على قدر من "الغباء"؛ يجعلها لا تدرك أو تتصور ملامح اللحظة القادمة.. اعتقدت أن الطقوس الكنسية هي الزواج الفعلي وهذا كل ما في الأمر.

كانت ليلتها الأولى في اسطنبول صادمة لها، لم تك تعلم ماذا سيحدث، ورغم انتماء الزوج إلى عائلة منفتحة، إلا أنه لم يكن من الذكاء ليعلّم زوجته الصغيرة عن أمور العلاقة الخاصة بينهما.

ليلة أخرى تغير مجرى حياتها.. لم تستطع استيعاب فكرة الزواج جسدياً رغم قبولها به إنسانياً واجتماعياً.

هكذا بدأت معاناتها الداخلية؛ تناقضات كثيرة تجول في داخلها، لتعود تساؤلاتها... ما قبل خطوتها الأخيرة تسيطر على مفردات تفكيرها، أخذت تتساءل عن مصيرها؟ دراستها؟ ومنطق الواقع يحاصرها بالعجزعن القيام أي شيء سوى رغبتها بإنجاب فتاة تملأ حياتها. كانت رغبتها بالإنجاب عارمة ولم يمض وقت طويل قبل أن تصبح أمّاً.

الفتاة التي لم تبلغ العشرين بعد؛ هي الآن أمّ غارقة في التفكير والأحلام ربما، أخذت تخطط وترسم ملامح لطفلتها، كانت تريدها بشخصية مستقلة، متحررة من كل القيود التي كانت تعاني هي منها.

ورغم كل ذلك هي حزينة، وتحاول الهرب من حرج الاعتراف، إلى أن جاءتها تلك الجملة من امرأة عجوز، بضع كلمات أضاءت ربما خيط نور في أفقها المظلم.

نعم.. جملة..

قالت لها: كيف تقبلين بأن تكون ابنتك لها أم غير متعلمة؟!

هنا تسارعت دقات قلبها، مر شريط حياتها سريعاً في ذاكرتها، لم تستغرق الكثير من الوقت قبل أن تحسم قرارها بإكمال دراستها الجامعية، لتصبح بعد فترة من الزمن امرأة منتجة، تمضي كثيراً من وقتها في العمل.

حلم الحرية والانعتاق لم يغادرها، لكنها لم تعرف السبيل إليه، إلى أن بدأت تتحسس ملامحه عن طريق بعض الأصدقاء الذين اختارتهم بعناية فائقة. بعد أكثر من عشر سنوات على الضياع في تفاصيل العمل، لتقف في لحظة تهكم من الحاضر وتسأل نفسها:

هل تتوقف الحياة بقرار خاطئ اتخذناه؟! لم تتعب خواطرها كثيراً في البحث عن إجابة، ولربما كانت تخشى أصلاً من احتمالات وجود حقيقة صادمة تحيل سؤالها إلى مواجهة مباشرة مع مرآة واقعها المعاش، فقررت أن تسلم أشرعة عمرها لقبطان الزمن، وأن تشفى من دوار الأحلام فما زال الصوت الخفي بداخلها يناديها للتغيير، شخصياً على الأقل، ولم تك تتوقع أن يأتي التغيير من كل حدب وصوب، لم تفكر يوماً بأن ربيع عمرها الذي غادر كان يحمل لها ربيعاً آخر في بلادها اسمه "ثورة" ولطالما حلمت بحدوثها، ها هو الحلم أمامها وجهاً لوجه.

باتت الآن أقوى، تتخبط بين الحين والآخر، ولكنها استطاعت أن تكسر كل القيود التي طالما أدمت طفولة أحلامها.

بين ألغام الحاضر الشاهق، وارتياب الغد المعلّق على مشجب المجهول، عاشت الحب والثورة في آن معاً.. لم تصل في أكثر محطات خيالاتها تطرفاً حد أن يحمل لها سيناريو الموت الذي لم يعرف بعد حلقته الأخيرة،

ربيع قلبها، أهي مصادفة؟ أم أن الحياة تسخر منها الآن؟ تركت سرير الأسئلة وقررت أن تمنح عمرها فرصة لترميم الحكاية، إذ وحسب قانون عواطفها في هوامش هذا المشهد الذميم متسع للحب ولو افتراضيّاً. وهي تتابع أحداث ثورتها تعرفت عبر مواقع التواصل الاجتماعي على أحد المعارضين السوريين لتتحول محادثاتهما المشتركة عن شجون الوطن إلى ترانيم عشقية في ظل الأمل.

كانت تتلقى رسائله بفرح عظيم.. وأصبح الليل بالنسبة لها، السبيل الوحيد للحياة خارج خارطة الدم.

لم يستطع انقطاع التيار الكهربائي أوشبكة الإنترنت أن تمنعها من التواصل معه. ودائماً ما وجدت البدائل التي تبقي ما اعتبرته حباً على قيد الحياة. لا تذكر كم من الوقت مر، لكنها تذكر جيداً بأن عمر حبها الآن أطبق عامه الرابع وزاد نصف عام ليحمل لها ذاك اللقاء الشاهق، فمن كان قبل ذلك شخصاً افتراضياً ها هو الآن أمامها حقيقة مجردة ولم تك تحتاج لأكثر من ذلك.

نعم فقد عادت اسطنبول لتتصدر الواجهة من جديد نتيجة الأحداث العاصفة ببلادها، بعد أن كانت بالنسبة لها بداية ليلة غيرت مسارات حياتها إثر زواج صار عمره أكثر من عشرين عاماً. ذلك الحب الممزوج مع الفراق والألم الذي لم تعشه داخل وطنها لا يمكن لشيء أن يختصره سوى دفء كلماته وحبه الذي لا ينطفىء. لن تنكر الآن.. فتلك الفوضى الداخلية ستشي بها حتما.

لن تسأل الآن ما الذي تغير؟ أو هل تلك الليلة تحديداً ليلة زفافها غيّرت مصير الطفلة؟ أم عقلية مجتمع أطاحت بأحلام كثير من النساء غيرها؟

أبحر بها ربان الزمن بعيداً لتعود الآن عاشقة في الأربعين، ومراهقة بتمردها وعاطفتها وأحلامها ولكن هل ستبقى؟!

سامي ورد

سأكون يوماً ما أريد

ريم فتاة سوريّة، فقدت والديها، وبإرادتها القوية استكملت تعليمها وحققت حلمها رغم صعوبة الظروف.

ريم.. ريم..

صوت ما يناديني.. بتثاقل أسمعه، يد تربّت على خدي، تختلط الصور أمامي وشيئاً فشيئاً تتضح، لا أبواب أو نوافذ في غرفتي... ملابسي متبعثرة، فوضى منتشرة والغبار يأكل كل شيء حولي، بصعوبة استدرت ورأيت ما كنت أخشاه حقاً.. تمزقتْ.. نعم.. تمزقت لكن بطريقة مختلفة.. أمسكت ببقاياها.. وبكت

من بين الغبار الكثيف أطلّت أمي باكية:

الحمد لله عسلامتك، كلنا بخير.. أنا وإخوتك.. سقط

البرميل في المدرسة أمامنا.. يقولون إن مؤذن المسجد "أبو علي" استشهد بالإضافة إلى أحد المارّة.. لعن الله البراميل ومن يلقيها.

لا جديد سوى الموت.. برميل متفجر.. ضحايا.. مصابون.. دمار واسع.. هذه هي الحياة هنا في بلاد لا يغادرها الموت منذ عدة أشهر.

ها أنا أفتح صفحة جديدة، وأتوه في بياضها، وأتخيل ما حدث قبل قليل، أرسمه بكل الخوف والقبح الناتج عنه.

هل ستتمزق هذه اللوحة على يد أخي غالب هذه المرة؟ سأخبئها جيداً، وإن مزقها سأرسم أخرى، سأرسم وأرسم.. لن أتوقف.

رافقني الحلم على مدى سنوات، اجتزت المرحلة الإعدادية بصعوبة، وكان علي أن أقنع أبي بضرورة متابعة المرحلة الثانوية في مجتمع قلما تستطيع فتاة فيه أن تصل إلى المرحلة الإعدادية.. في آخر الليل أسلي نفسي بالرسم.. رسم كل شيء.. الطبيعة والوجوه.. وحتى الأحلام.. أرسم عدة أشكال لكلية الفنون التي أطمح أن أكون طالبة فيها، وهو أمر أشبه بالمستحيل إذا كان الوضع مستقراً.. فكيف إذا كانت البلاد تضج بالثورة.

لم أدرِ أن القدر يتربص بي وبعائلتي، إلى جانب الفقر عانى أبي من قلة الحظ والهمة، لا عمل له إلا افتعال المشكلات مع أمي المسكينة.. المريضة، لم نكن عائلة مثالية فيما يخص التربية والتعليم رغم محاولات كثيرة من أمي التي شُغلت بتلبية طلبات أبي رغم تدهور صحتها، وتنقلت بين المشافي والمصحات وكان المرض رفيقها المخلص، كانت أكثر من شجعني على استكمال دراستي وتطوير موهبتي في الرسم.. كانت تقف إلى جانب كل أحلامي البسيطة.. المشروعة.. نعم ربما هي حقوق.. ولكن في واقعي الذي أعيشه.. هي أحلام وغالباً ما تموت دون أن تتحقق.

وككثير من الأسر من طبقة الفقراء لم نملك قرار تأييد الثورة أو رفضها، فوقوع حيّنا تحت سيطرة المعارضة جعلنا مؤيدين للثورة عفوياً، ومعرضين لخطر البراميل اليومية، فحي قاضي عسكر بحلب شهد أحداثاً مهمة، بينها معارك شنتها المعارضة المسلحة لطرد تنظيم داعش الذي أعدم عدة أبرياء كانوا في سجنه قبل انسحابه من الحي، من بينهم ابن جارنا الذي كان يعمل مع منظمة إغاثية ويوصل المساعدات إلى المحتاجين في المدينة التي لم تعرف الجوع قبل ذلك.

ضجيج وفوضى تملأ المكان، رائحة الدم والموت تسكن كل زاوية فيه، سرعة في خفقان قلبي وضيق في تنفسي ودموعي تبلل خديّ.. وحالة من الانتظار الحارق... يخرج الطبيب من غرفة العناية المركزة مقطب الحاجبين

– دكتور.. طمني؟

– ...

– دكتور.. تكلم.. أخبرني

– كانت جلطة دماغية قاسية.. الإنسان ضعيف.

لا منطق لأولويات الموت، دائماً ما يخرق قوانين التوقعات، لم تمتْ أمي بشظية رغم أن أكثر من برميل سقط حولها، عاشت وماتت بهدوء، لم يحضر تشييعها سوى بضعة رجال، لم يكن لها نصيب في أن تشيع كما يشيع قتلى البراميل حتى.. مسكينة هي أمي حتى في موتها.

موت أمي أجّل تحقيق الحلم، كانت ملهمة ومدافعة عن حقوقي، كانت وردة في صحراء قاحلة، آمنت بحلمي وجهدت لأصل إليه، رغم أن كلامها لا وزن له في المنزل.

عدة أشهر مضت تناوب فيها الحزن والقصف على تعكير حياتنا، أنا

وإخوتي الأربعة، فالحزن حاضر في كل وقت، ولا يغيب عن الذاكرة إلا عندما يتهاوى حولنا برميل، فينسينا حتى الحزن على أمّنا الغائبة.

رسمتُ يوماً وجه أمي، وسرحت فيه وأجهشت ببكاء طويل، وسقطت دموعي على خديها المرسومين، فرأيتها تخرج من الورق... وتعانقني... وأبكي... وأشعر براحة لم أشعر بها... ولم أنتبه إلا على صوت أبي يوقظني لأعد له طعام العشاء... ما أعذب الأحلام وما أقسى الواقع!

يطالبني أبي بصنع شيء أكثر جدوى من الرسم الذي لا طائل منه، لكنني أصر، كلامه هذا يعطي إيحاء غير مباشر لأخي الذي يصغرني بعامين بتمزيق لوحاتي، إلا إذا كانت لوحة لفتاة جميلة. يمنعني أبي من الذهاب إلى المدرسة بذريعة تعرضها للقصف، لكن الذريعة الأساسية أن قاعدته في الحياة تحظر على الفتاة أن تتابع دراستها وتخرج إلى الشارع وحيدة بعد بلوغها الخامسة عشرة. يؤنبني لكي أهتم بإخوتي.. فأنا أمّهم كما يقول رغم أني لا أشعر بعاطفة الأم، قد تشعر فتاة في 17 من عمرها بعاطفة الحنان تجاه إخوتها، ولكن من المبكر أن تشعر بعاطفة الأم.

كان الموت دائم الحضور في مدينتنا، لم يطل غيابه عن منزلنا، شظية برميل متفجر اختارت جسد أبي واستقرت فيه، جعلت منه شهيداً، وهذا أفضل ما فعله في هذه الدنيا كما قال أحد أخوالي.

تخنقنا الوحدة بعد فقد الأبوين، لا معيل ولا مرشد أو دليل. مربية وأم وأب هذا هو حالي. باهتة هي ألواني ولم أعد أقوى حتى على الحلم، لم أستطع رسم وجه أبي كما رسمت وجه أمي، رسمت جسده المسجى بالكفن الأبيض، رسمت قبره.

بعد موت أبي لم تُمزَق أي من رسوماتي الحزينة... تمزق كل أمل في

داخلي. لن يتسع الحزن للمآسي التي أعيشها، أأحزن على نفسي أم على إخوتي، أم على ضياع حلمي أو وطني؟ لكنني ما زلت أرسم.

الهروب من الواقع يحتاج إلى مجازفة، وكنت أدخر مجازفاتي لأستخدمها سلاحاً في تحقيق حلمي.. أما الآن وقد غدا حلمي سراباً فلا بأس بالمجازفة. قررت أن أتزوج، صغيرة أنا.. نعم 17 عاماً ليست السن المناسب للزواج، أعرف هذا الكلام جيداً، لكنني أحتاج إلى رجل في بيتنا المتهالك.. إلى مصدر قوة وأمان.. ربما ليس هو فارس أحلامي الذي رسمته كثيراً، ولكن لا دواء من دوامة اليأس والحزن إلا بالزواج.. نعم هو بلسم مخدر، مسكّن لآلام الحياة.. سأتزوج.

لستُ أولَ مغامِرة تفشل، المهم أنني تعلمت الكثير من هذه المغامرة.. أحمد الذي تزوجته.. لم يكن رجلاً، هو ذكر ليس إلا، بعد أشهر من زواجنا.. هجرني.. سافر إلى تركيا حتى دون أن يطلقني، قال إنه ملّ الجلوسَ معي، كان كلما غضب مني.. ينتقم من لوحاتي ويمزّقها.. وحدتي علمتني ألا أعتمد إلا على نفسي.. فلن يغير الناس واقعي إذا لم أتمكن من تغييره بنفسي.. عندها اتخذت قرارات حاسمة.. أعدت رسم أحلامي.

في حياة والديّ لم أكن أتوقع أنني سأحصل على الشهادة الثانوية.. عاندني القدر.. ثم وقف إلى جانبي، سنة كاملة من التعب والجد.. ها أنذا أحمل الشهادة الثانوية وأعمل في منظمة إغاثية توفر لي راتباً جيداً لأصرف على إخوتي.. وأخطط مستقبلاً لألتحق بإحدى الجامعات.

عدة أشهر مضت.. كنت أحاول أن أرسم ملامح واضحة لأحلامي.. أن أكون قريبة من الواقع.. أن أبتعد عن الخيال المتعب الذي لا يتحقق، نبهتني من شرودي هزة هاتفي الجوال على الطاولة.

- الو
- ريم؟
- نعم، تفضلي.
- اسمك من بين المقبولين في إحدى الجامعات التركية.. مبروك!

اختلطت دموع الفرح والحزن بكثير من الدهشة.. ولم أجد نفسي إلا أرسم وجه أمي.. وأعانقها.

فراس العلي

الضحية رقم 43

شعر أحياناً أنّك منزوع العواطف، لا يخدش أحاسيسك أيّ مشهد مؤثّر بسبب العادة المقيتة التي تقتل المشاعر مع الوقت.

دمار كبير يحلّ بالمكان، لا يُسمع سوى أصوات المنقذين ودوي سيارات الإسعاف، يتجمّع الناس حول المبنى المدمّر.

أحدهم يقول: ها هي طائرة أخرى في الأجواء ستستهدف التجمع بغارة جويّة انتبهوا يا ناس.

تسمع الجموع صوته، تفرّ بسرعة نحو الشوارع الفرعيّة الملاصقة للسوق، بعضهم اختبؤوا في مداخل المباني، آخرون اتجهوا إلى الحديقة القريبة من ساحة السوق.

حيّرني هذا المشهد، ماذا أفعل؟ أين سأختبئ؟ وهناك طائرة في السماء تحاول قصف المدينة مرّة أخرى، تسمّرت في مكاني

قرب أحد الدكاكين المطلّة على الساحة، والذي تأثر بالغارة الجويّة الأولى فلم يبقَ منه سوى ركام الأحجار والزجاج على الطاولات.

خمس دقائق من الترقّب وعاد الناس إلى ذات المنطقة، بدأ بعضهم بالهتاف ضدّ الحكومة تنديداً بالجريمة، آخرون صوّروا مكان القصف، فهذا الأمر لم يحدث من قبل في المدينة.

في لحظة مباغتة عادت الطائرة ورمت حممها بين الجموع، من استطاع الهرب نجا، في حين واجه العشرات "حتفهم"، كنت خلف أحد المباني أختبئ وأراقب الأجواء، لم أجرؤ على تصوير مكان القصف بادئ الأمر فجموع الناس ستثير بداخلك القلق والخوف باستمرار.

أتجوّل بالمكان بعد قصفه للمرة الثانية، أرى أناسا تحوّلوا لأشلاء، أحدهم احترق مع دراجته الناريّة فلم يعد يميّز أحد بين أثره وبين حطام الدراجة. شاب آخر حمله المسعفون والدماء تسيل على طول الطريق وقد قُطعت قدمه اليسرى بسبب شظية من الصاروخ المتفجّر، ثلاثة إخوة في الجيش السوري الحر كانوا قد اجتمعوا معاً قبل ربع ساعة من توقيت القصف، جميعهم لقوا حتفهم.

اتجهت للطرف الآخر من ساحة السوق القريبة من الحديقة، وأنا أنظر إلى آثار الدمار الذي حلّ بالمكان. رأيت صديقي؛

إنّه صديقي ممدّد على الأرض والدم يسيل منه، نسيت عملي وعلى الفور ركضت نحوه، اقتربت أكثر، وإذ بشظايا صغيرة دخلت جسده لكن لم تأتِ بمواضع خطيرة، حملته سيارة إسعاف، ومضينا به إلى المشفى.

عدتُ لذات المكان لأرى المصابين وأوثّق جرائم النظام بحقّ المدنيين، أحدهم يتكلّم لمن مازال يتجمع حول مشهد الجريمة ويصيح... فتحت باب السيّارة

وإذ برأس المرأة قد فصل عن جسدها وأصبح في وسطها!
معظم الجموع: حسبي الله ونعم الوكيل، قدرها أن تُقتل وهي داخل السيّارة برفقة زوجها وطفلتها.
اقتربت أكثر، قلت لأحدهم: من الذي قُتل، من يكون، وكيف حصل ذلك داخل السيارة؟!
أجاب: لقد قتلتهم شظايا الصاروخ الذي أطلقه طيران النظام في ساحة السوق، اخترقت زجاج النوافذ وقتلت الأم والطفل الصغير وأصيب الأب.
عدت أغيّر بالأمكنة وأوثّق أسماء القتلى والجرحى وإذ بأخي يركض نحوي من بعيد فاتجهت نحوه.
أنا: ما بك لماذا أتيت هنا؟
أخي: أمّي تسأل عنك
أنا: صحيح، ماذا حلّ بالحارة؟
أخي: قُتلت أمّ رامي وابنتها الصغيرة برصاص رشاش الطيران.
أنا: يا إلهي، هل وصل القصف إلى هناك؟ ماذا حصل أيضاً؟
أخي: اجتمع شباب الحارة وأحضروا أكياساً ليجمعوا أشلاء المرأة وابنتها، الحارة مصدومة لهذا الخبر، وجئت هنا كي أطمئنّ عليك، والدتك أقامت الدنيا ولم تقعدها وهي تريد الاطمئنان عليك.
أنا: اذهب إليها قل لها إنني بخير وسأعود بعد الذهاب للمشفى، هذا عملي بالنهاية.
عاد أخي للمنزل ورجعت أنا لأكمل جولتي وأنا أترقّب السماء خوفاً من عودة الطائرة مرّة أخرى، صادفني أحد الأصدقاء، كان بدراجته الناريّة يمضي بالطريق المؤدّي للمشفى.

أنا : صديقي إياد أرجوك أوصلني للمشفى لدي عمل عاجل.

إياد : هيّا اركب معي.

ركبت معه ومضينا نحو المشفى، على الطريق تبادلنا أحاديث الغارتين الجويتين.

قلت له: هل تعرف أحداً من الضحايا؟

أجاب إياد : نعم، رأيت الذي حُرق مع دراجته الناريّة؟

أنا : نعم رأيته كيف يحترق ولم يستطع أحد مساعدته، من هو؟

أجاب: إنّه ابن الفوّال الذي يملك مطعماً في الطريق الشمالي من المدينة.

أنا : أه يا إلهي، لقد عرفته، يا حرام، اللهم صبّر أهله.

وصلنا إلى قسم الإسعاف في المشفى، دخلت على الفور إلى غرفة الاستقبال كي أسأل عن عدد الضحايا.

أنا : من فضلك حكيم، كم عدد الضحايا الأخير؟

الطبيب: والله للأسف مجزرة كبيرة راح ضحيّتها 34 مدنياً وهناك عشرات الجرحى نقلنا بعضهم إلى تركيا بسبب حالاتهم الخطيرة.

وأنا أحدثه، جاءه الممرّض وطلب منه النظر لأحد الجرحى في قسم العمليات بالطابق العلوي، ركض الطبيب وتبعته بدون وعي وأنا أحمل دفتراً وقلماً.

وصلنا الطابق العلوي، أكثر من 10 أشخاص من أقاربه وأصدقائه يتجمّعون فوق رأس الجريح الذي ينزف بلا هوادة.

يتّجه الطبيب نحوه ويقيس ضغطه ثمّ يحاول أن ينقذ حياته بأكثر من طريقة، بعد قليل يدير ظهره نحو جمع الناس ويقول: البقيّة بحياتكم، الشاب خلّص.

يبدأ الصياح داخل غرفة العمليات، أحدهم (أخ المقتول) من بين الجموع يتقدّم نحو الطبيب ويمسكه من طرف قميصه.

يصرخ بوجهه: لماذا لم تنقذه أجبني ها؟ تكلّم... أنت طبيب أم ماذا؟

الطبيب: يا أخي تلك مشيئة اللّه، لا يمكن فعل شيء، هذا قدر أخيك.

استمرّ جمع الناس بالبكاء والشاب ممدّد على السرير، ما هي إلّا ربع ساعة يتمّ تغطيته ببطانيّة، وحمله للنزول به إلى البرادات في المشفى.

آزرتهم بحمله ونزلنا ونحن نكبّر ونقول:

لا إله إلا اللّه والشهيد حبيب اللّه.

بعد مضي دقائق، نزل طبيب آخر بسرعة.

وقال: أرسلوا أحداً للمساجد لينادي إعلاماً بحاجتنا الماسة للتبرّع بالدم فوراً، لا يوجد احتياطي كبير، سينفد بعد حين لكثرة الجرحى.

فعلاً ما هي إلّا دقائق حتّى بدأت تصيح مآذن الجوامع وتقول:

يا أهل الخير في المدينة؛ المشفى الوطني يحتاج للتبرع بالدم هناك نقص وهناك جرحى جزاكم اللّه خيراً.

اتجهت نحو بنك الدم وتبرّعت مثلي مثل غيري من شباب المدينة الذين أحدثوا ازدحاماً كبيراً عند باب بنك الدم.

الكل يتقاتل على مساعدة الجرحى ذاك الوقت، شعرت أنّ المدينة جسد واحد بأبنائها الذين لم يتركوا المشفى، فمنهم من أسعف الجرحى ومنهم من حوّل سيارته لسيارة إسعاف، وآخرون تبرّعوا بالدم، الأطباء اجتمعوا فوراً في المشفى.

لم تمضِ سوى ربع ساعة لألمح والدتي تقف عند باب بنك الدم، ركضت نحوها لماذا أتيت إلى هنا؟

أمـي: أريـد التبـرّع بالـدم هنـاك مـن بحاجـة للـدم وقـد ننقذه، لا أسـتطيع فعل شـيء دعني أقـوم بذلك.

أنـا: لقـد جـاء الكثيـر وتبرّعـوا بالـدم، وأعلـن مديـر البنـك عـن اكتفائهـم مـن المتبرعـين فالعـدد هائـل... اذهبـي للمنـزل، لا شـيء مقلـق وأنـا سـأبقى هنـا لإكمـال عملـي.

رأيـت أحـد أصحـاب السـيارات فأرسـلت والدتـي معـه ليوصلهـا للمنـزل، ثـم اتجهـت مـرّة أخـرى لغرفـة العمليـات.

عدتُ للطبيب ذاته وسـألته: كم أصبح عدد الضحايا؟

أجاب الطبيب: واللّه يا أخي ازداد؛ أصبح 42 مدنياً بينهم أطفال ونسـاء.

سـألته: هل العدد مرشّح للزيادة؟

الطبيب: نعم إنّه مرشّح للزيادة واللّه يستر من القادم.

مـا هـي إلّا لحظـات حتّـى أتـى صـراخ آخـر مـن إحـدى غـرف المشـفى، ركضت نحوهـا، سـألت أحـد الواقفـين قريبـاً مـن الغرفـة: مـاذا حلّ هنـا، ماذا يحصل؟ التفت يميناً وإذ بشـاب يافع يحمل طفلة صغيرة، تقدّم نحوي فوراً وسـألني: مرحبا أسـتاذ؟

أجبته: أهلاً من أنت؟

قـال: أنـا طالبـك مجـد، درسـتني اللغـة الإنكليزيـة في الصـف الثامـن بقريـة قريبـة مـن المدينـة.

أنـا: آه آه تذكرتك كيف حالك، مممم لماذا أنت هنا؟

أجـاب: لقـد دمّـر القصـف منزلنـا وأبـي أصيـب بشـظية وهـو الآن في غرفـة العمليـات لا نعـرف كيـف هـي إصابتـه!

أنـا: سيخـرج معافـى بإذن اللّه

ربع ساعة أخرى وإذ بممرّض يخرج، سألته ماذا حل بأبي مجد الذي في هذه الغرفة، دخل إليها ثم خرج وقال: لقد وافته المنيّة لم يحتمل أثر الشظية.

همّ ابنه بالبكاء، والطفلة الصغيرة لا تعرف ما حل سوى أنّها تنظر باستغراب إلى وجه أخيها الباكي، لا تعي أن والدها قتلته طائرات النظام بقصفها للمناطق المدنية.

أضفت اسماً جديداً إلى لائحة الضحايا ومضيت إلى الخروج من المشفى بعد وقت دام نحو ساعتين من الجهد والتذمّر.

قبل هذه الحوادث عشت أكثر من 38 حالة قصف للمدينة معظمها أدّت لمقتل مدنيين في منطقتي، وكنت أوثّق أعداد الضحايا، وأصوّر المكان المدمّر، لذا أصبحت منزوع المشاعر لا أفكر بعاطفة، لا أبكي ولا أفرح. هذا أكبر مقت في الحياة، أن تعتاد على مشاهدة القتلى والجرحى وتخضع لمواقف عصيبةٍ لا يحتملها أيّ شخص.

عمار محمد

على الضفة المنسية من الحرب

17 تموز 2012
(بدء معركة الميدان وزلزال دمشق)

تبعاً لضغطته على الزناد، حرك كل شياطين الموت دفعة واحدة، بينما خفتت الأنفاس وصمتت كل الأصوات، باستثناء ضجيج الحرب خارجاً.

كان يخبئ نفسه بين يدي بارودة، يتجنّب التحديق في العيون الثابتة الممتلئة بالعزيمة، يتردد، يقرر، يرتجف، يتعرّق، ويصرخ، محاولاً ستر خوفه بصراخه، بلهجته البدوية متناسياً اللهجة التي يصطنعها دوماً.

يفقد أعصابه ويلقي بكلماته رشّاً، بينما ينسلّ وجوده من الزنزانة دراكاً.
يحاول مجدداً أن يحتمي بخشب البارودة العتيق، برخامة صوته المتهرّب منه.

تلك اللحظات كانت لا تساوي شيئاً بمعايير الزمن، لكنّها كذلك كانت حدّاً فاصلاً، ما بين الموت والحياة، كانت اختصاراً لصرخة الولادة وحشرجة الموت في آن معاً.

بحيث لم يمتلك ذلك العسكري شجاعة ضغط الزناد قط، ولم يراودنا رعب ما هو أسوأ من ذلك؛ إنما كان محور رعبنا هو المجهول.

وما وراء خوف العسكري ورعشة البارودة واقتراب مقاتلي الجيش الحر من سجننا، ووصولهم إلى الجانب المنسيّ من الحرب.

حيث لم يعد يسمع أو يرى إلا وقع الصرخة اليائسة، ترتدّ على جدران الزنزانة مُصدرة صدى يطالبنا بالثبات وإلا..

0.0

اعتبر أن اسمي إبراهيم، وأني في العشرين من عمري، ومن أحد أحياء دمشق، ما الذي يهمك من ذلك كله، لست أدري.

اعتبر أن كلامي موجه لك تحديداً، مع أني لا أكترث في الواقع لمن يقرأ قصتي أو يتجاهلها، لمن يتأثر بها أو ينعتها بالتافهة، لا أكترث أبداً.

مضى على وجودي هنا ما يزيد عن الشهر، إلا أني لم أتأقلم مع الجو حتى اللحظة، مع أنّ الوجوه ذاتها، الجدران ذاتها، حفنة الوجع ذاتها، نوع الشتائم الحميميّ الذي لا يتغيّر والذي لم يعد يشكل فرقاً، وآثار السياط التي لم تعد أكبر همّنا لا تزال كما هي.

الظروف هنا تسيرُ حسب مزاج السجّان، تحت رحمته وسمعه وبصره، وأي إزعاج أو مشكلة تواجهه في عمله، فهذا يعني يوماً حافلاً بالعقوبات بالنسبة لنا.

- ياولاد الـ.. (شتيمة لا أحبّذ ذكرها)، يامـ.. (شتيمة أخرى)، ماعم لحّق نام، سدو حلقكن بقا، انخمدو.

مقتلُ صديقٍ له على أيدي الجيش الحر كفيل بقلب يومنا جحيماً أحمر وأزرق وكلّ ما تتخيله من ألوان.

أيّ همسةٍ كفيلةٌ باستجرار غضبه، وغضبُه يعني جلدنا أو ضربنا، أو اختيارُ عددٍ منا ليتفنّن بتعذيبنا، بتعريتنا من ملابسنا وكرامتنا وإبقائنا وقوفاً إلى أن يشاء الله، ويلين قلبُه فيأمرنا بالجلوس، مُلازماً أمره بشتيمة باتت لا تثير غضبنا.

للتسلية طقوس عند السجّانين، ولكلّ سجّان طقوسه التي يعتزّ بها ويتقيّد بها دائماً رغم كلّ شيء، حيث إنّ لكلّ سجان هَوَساً ساديّاً معيّناً. فأحدهم يُفضّل أنبوباً بلاستيكياً، والآخر سياطاً والثالث جزءاً من عجلة سيارة.

غالباً ماكنتُ من المغضوب عليهم.

فإما نائم في وضح النّهار، أو أني أحاول كسر حاجز الصمت القاتل، ولم يعد يهمّني.

نادى السجان لمحمد طالباً منه اختيار 10 أشخاص ليتعرضوا للعقاب، وكنت منهم طبعاً.

فضّلتُ أن أكون الأخير، استلقيت على بطني مُستسلماً بصمت، ورافعاً قدميّ في زاوية قائمة.

كل الوجوه تحاولُ النظر نحوي، أمرٌ راعد يكون كفيلًا -تلك اللحظة- بجعلهم يُديرون أجسادهم وعيونهم ورغبتهم الفضوليّة للاكتشاف، وكأنّ ذلك الذي يجري خلفهم غريب عنهم.
يرفعُ السجّان بيده حتى آخر حدودها ليهوي بالحزام الجلدي المُقتطعِ من "كاوتشوك" عجلة سيّارة، ويُعاود فعله عدّة مرات حتى يظنّ أنّ ذلك بات كافياً رغم استفزازي له بعدم صُراخي أو استغاثتي، لا بعذراء ولا بالمسيح ولا محمد ولا حيدر ولا اللّه الأعلى.
فقد أيقنت أن مناجاتي بصمتٍ من القلب أجدى، وأضمن لعدم سماعي سُباب الذات الإلهيّة والدّين.
بات الألم والعذاب، الذلّ وسحق الكرامة عرضاً عابراً من إرهاصاتِ السجن، لكن ثق تماماً أنّه لن يصير عاديّاً مهما استمرّ.
قد تختنق وتحنق، قد تغضب وقد تفتك بك ظروف الزنزانة، تعامل السجّانين، والمناخ المقيت لتلك اللحظات.
لكنّك لا تملك أن تُغيّر ظروف الموت أو أن تُملي عليه إرهاصاته.
إنما عليك تقبّله كما هو، بظروفه وشروطه.

0.1

تستغرق في وجودك هنا أكثر من اللازم لدرجة أن تفاصيل المكان والزمان تغدوا عادية وأقل من أن تسترعي شيئاً من اهتمامك.
وتصبح محتويات الزنزانة أقّل من أن تلتفت لها، أو توليها أيّ انتباه.
تستغرق في توحّدك وانفصامك حتى تكاد تنسى من هم حولك، وتنسى كل مايسبق اللحظة، وكأنّك وُجدت فجأة في منتصف حلم.

في لحظة لا يسبقها إلا الفراغ ويتبعها المزيد من الفراغ، حتى إنك قد تُذهل وتُفاجأ حين تصحو من شرودك.

أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هنا؟

من هؤلاء؟ ومالذي يحدث؟ لمَ أنا مصاب بالصداع ومشوش؟

0.2

كرة سلة، نادي كمال أجسام، سفر، التيبت، رواية، موقع، صحافة، كليّة الإعلام، حرية، بلد حر، حلاوة الجبن، حمص، أهلي،- أصدقائي.

كنت مشوشاً لدرجة كبيرة في تلك الأثناء، لدرجة أني غدوت أحادث نفسي كثيراً، أضع مخططاتي وملاحظاتي ولوائح الشراء، وأتصرّف على أساس أنني خارج الزنزانة.

أخطط وأذهب وأكتب وأرسم وأقرأ وأجنّ وأتظاهر، وأنا مقتنع تماماً بأنّ هذا هو الواقع وكل ما أنا فيه محض كابوس سيمضي كغيمة صيف.

أتلمّس رأسي الأصلع الذي حُلق حديثاً وأتنهّد، "أهرش" لا شعورياً، أغمض عينيّ وأصمت، وأنا أتجاوز بكياني كل أبعاد الزمان والمكان لأكون في المكان والحدث الذي أرغب أن أكون جزءاً منه.

أنتفضُ من شرودي على صوتِ طرق لباب الزنزانة الحديدي بعنف شديد، نادى السجّان على اسمي واضحاً لأهبّ منتصباً بلحظة وأتّجه إليه تلقائياً.

فُتح الباب فدلفت خارجاً ليغطّي الظلّ عينيّ بعصابة جلدية ويسوقني باتجاه مبنى التحقيق، درج نازل، باحة واسعة، درج صاعد طويل ثمّ ممرّ تتناثر غرف التحقيق على الجانب الأيسر منه.

أمرني السجان من خلفي بأن أجثو مرفقاً أمره بضربة على ظهري، هويتُ جاثياً على رُكبي كشجرة يابسة، مواجهاً الحائط.
لم يطل انتظاري كثيراً قبل أن أُرمى أمام مكتب المحقق في ذات الوضعية، العصبة على عيني تحجب عني الرؤية بالإضافة ليد السجان المرتاحة على قفا رقبتي والتي تجبرني على توجيه نظري نحو الأرض.
توقعتُ وجود لافتة فوق المكتب تحمل آية:
"وماظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" كالتي ملأت جدران وغرف فرع فلسطين (فرع أمني في دمشق، استُخدم سابقاً كمعتقل للأجانب والإسلاميين قبل أن يتحول إلى معتقل سياسي).
كما توقعتُ: الضحكة الصفراء خلف المكتب الخشبي الذي يعجّ بالملفات وأعقاب السجائر وفناجين القهوة وكؤوس المتة، وتعتليه أقدام عملاقة، الضحكة الصادرة عن ذاك الوجه الذي يرن صراخه فيما يسبق ويلي الضحكة في ذاكرتي وعقلي.
توالت الأسئلة والضربات عليّ بسرعة وثقل أكبر مما أستطيع استيعابه، كنت أشعر بالإرهاق بالفعل من قبل ضربي حتى، إلا أن ثقل يد السجان التي يلقيها على أنحاء مختلفة في جسمي كمتلازمة مع كل سؤال يطرحه المحقق المسترخي في مقعده الجلدي جعلني أتهاوى سريعاً.
ركن عقلي سريعاً للاستسلام، رفع الراية البيضاء فهوى جسدي الذي لم يعد يستطيع النجاة وحده.
باتت كل الأصوات تشبه ضجيج البحر وهياج الريح، بعيدة وعميقة وعديمة المعنى، وكل الألوان تتداخل في مزيج أحمر وأصفر مشوه.
انفصلت حرفياً عن جسدي، لم أعد أسمع، أو أميز أو أشعر بشيء مما

يدور من حولي، بينما يستمر المحقق بالبرود ذاته بطرح أسئلته الغبيّة، متلازمة مع ركلات ولكمات السجان، وأنا أتماهى مع الكون.

لم أعد أرى أو أدرك حدود جسدي، كنت أبتسم دون جدوى ودون توقف، وأنا أحاول اكتشاف حواسي من جديد ببلهٍ واضح، بينما صوت المحقق يتردد في الغرفة.

– من مين عم تاخد دعم من قطر ولا السعودية؟ مع كم جهة عم تتعامل ولاك عرعور (أحد الشيوخ السوريين الذين حرّضوا على الثورة)؟

– مين وراك ولا حيوان؟ مين الكلاب اللي وراك؟

– كم مظاهرة طلعت ولا كلب؟ وعم تسبو سيادة الرئيس مهيك؟

– احكي احكي، نحنا بنعرف كل شي وعندنا صور ووثائق بس بدنا ياك انت تحكي، اعترف أحسنلك.

0.3

أنتَ هنا حيث لا قيمة فعليّة للوقت، حيث لا سُلطة لقانونٍ أو شرع.

مما يجعلك تسترقُ المتعة والابتسامة اغتصاباً في خضمِّ الألم والصراخ ورنين القيود، وانتهاز الفرص للحديث والنقاش.

نسترسل في ذكر الماضي ونضحك على كل شيء مهما كان تافهاً.

أتلعثم في الكلام فنضحك، يخطئ أحدنا في كلمات الأغنية فنضحك.

نتألّم فنضحك، من بين دموعنا نضحك.

يُعاقب أحدنا أو يعود من التحقيق مُترنّحاً فيضحك على نفسه ويضجّ الناس بالضحك، نضحك على غباء الماضي، على وجع الحاضر، نضحك لأجل الضحك، ونضحك على أنفسنا.

نضحك على الخوف الذي يملأ عيون السجانين، على شعورهم بأنّهم السجناء ونحن الأحرار، مهما حاولوا الاختباء وراء أقنعتهم الجبّارة. ولكوننا أحراراً في عالمنا الخاص، في أحلامنا ومعتقداتنا، سنضحك دون سبب، ربما خوفاً من البكاء، وربما لأن جلّ ما نستطيعه هو أن نضحك.

"حمصي جداً"

جلست بجوار حسام، ثم وضعتُ رأسي على قدمه.

أستمع إلى حديثه وأنا أبتسم للهجته الحمصية اللذيذة، التي تبثّ الأمل في نفسي دونما سبب. كان حسام "حمصياً جداً"، متفائلاً بطبعه، يُكسب كلامه لهجةً توحي بقوّة أكبر مما يحمله فعليّاً.

له بعض ملامحِ ضياء البسطي وابتسامته الواثقة ووسامة طارق الأسود وعينيه.

كان يتحدّث بجدّية عن حمص ومعاركها، عن كتائب الفاروق، عن شجاعة واستبسال الجيش الحرّ على أرض حمص.

ثم لا يلبث أن يهزأ من الوضع ويطلق دعابةً باسمة عن رعب النظام، يضجّ بعدها الناس حوله بالضحك.

قال لي يومها باسماً ابتسامةَ ضياء إياها:

"بتعرف شو قلي المحقق يوم تحقيقي؟

اكتفيت بنظرة مستفسرة قبل أن يُتابع.

"لك انتو المسلحين، ما ألعن منكن إلا جماعة التنسيقيات، هدنكي بيقلولكن فزّو، شوفو شو عم يصير، وانتو متل الجحاش بتهوجو بدون ما تشوفو أوتعرفو شوصاير، لك يلعن اللي خلقكن ماأجحشكن".

ويضحك لغبائهم بينما ينظرُ نحوي ويتابع:
"لك انتو مصيبة، انتو بلوة، وبتقلي ايمتى رح يخلو سبيلك!"
أضحكُ لما اعتبرته إطراءً وأكتفي بقولي:
"شايف لك حسام"
أغمض عينيّ، ورأسي لا يزالُ على قدمه وأتخيّل نفسي نائماً، فقد تكسّرت رقبتي وتورّم رأسي من حذائي الذي حوّلته مؤخراً إلى وسادة ، وأضحك من سفاهة أحلامنا.
فقد باتت آمالنا وأحاديثنا بمعظمها تدور حول الطعام الطبيعي والنوم، وأن أنام كالبشر فأمدّ أقدامي دون أن أزعج أحدهم، وألوّح بيديّ يميناً وشمالاً دون أن أسمع صيحات الشتائم ممن ينام جانبي بملابسه المُتعرّقة حدّ البلل.

17 تموز 2012
كان ذلك بعد أن غطى صوت التكبير أرجاء الزنزانة، وبدأ المعتقلون بالتهليل لسماع صوت الاشتباكات في باحة الفرع وفي محيطه، وبدأنا بالهمس لبعضنا بأن الخلاص بات قريباً، وأن الجيش الحر سيحررنا قريباً، فما كان إلا أن دخل خضر (السجان) علينا كالمسعور يهدد ويتوعد وهو يرجف، ويتمتم ويصرخ بكلام غير مفهوم، على ما يبدو أنه يأمرنا بالصمت.
كان أملنا بالخلاص يومها قريب جداً، إلا أننا لا نزال هنا ننتظر، لم يدخل الجيش الحر ولم نتحرر، مازلنا هنا منتظرين نيزكاً يدمّر الكوكب وينتهي كل شيء.

نهاية:
ها هو بيتنا كما تركته تماماً، لم يتغيّر فيه موضع إبرة.
استقبلتني ابتسامة أهلي المطمئنة وأحضانهم الدافئة، لأترك دموعي تبوح بما عجزت عنه كلماتي وفي قلبي حرقة الدنيا وألمها..
أحسست حينها كأنّ الدنيا لا تكاد تستوعب فرحتي، التي لم تلبث أن تلاشت وأنا أفتح عينيّ على السقف الشاحب والوجوه اللعينة الباردة من حولي.
استغرقتُ بضع دقائق لأدرك الموقف.
لأتأكّد أنّ ما عشته كان حلماً كتلك الأحلام التي تزورني كل يوم عن كوني حراً بين أهلي، لتستحيل الابتسامة على وجهي خيبة.
نهضتُ لأعدّل جلستي ملقياً بثقل أوجاعي على الجدار وأنا أتأمّل خيط الشمس الذي يتسلل على استحياء من نافذة الحمام.
يُفترض أنه اليوم السابع والعشرون من الشهر الثاني لي هنا.
ترى ماهي الأخبار في النشرة الصباحية لهذا اليوم؟!
حصيلة القتلى ومواقع القصف، عدد المظاهرات التي خرجت اليوم؟!
مع أنّ ابتعادي عن الأخبار يريحني من الصداع نوعاً ما، إلا أني أكاد أدفع عمري لأعرف ما يجري خارجاً.
ما الهدف من نشرات الأخبار بعيداً عن السياسة، سوى منحنا القليل من المشاعر وإعادتنا إلى إنسانيتنا التي نكاد نفقدها.
لكن ما ينقص تلك النشرات هو أخبار ما يحدث هنا، علّ العالم يستفيق على واقع أن أحلامنا وأهدافنا هي أكبر من أن تتحصر بالأكل والشرب وحقنا في الانتخاب، وبأننا موجودون وأحياء لانزال، على الطرف المنسيّ

من الحرب وفي غرف التحقيق، أو حتى في أحلامنا البائسة.

فما يحدث هاهنا لا يكاد يدري به سوى من يقبع هاهنا، ويعايش تطورات الأحداث يومياً.

يمن حلاق

ثرثرة

"لا تجزع من جرحك وإلا فكيف للنور أن يتسلل إلى باطنك" رافقتني كلمات الرومي سنة كاملة وسبع شهور منصرمة لكنها لم تعد تكفي لعزائي الآن، فكلما نظرت إلى باطني اكتشفت ألماً جديداً خلّفه ذلك الجرح، لم أرَ النور مذ غاب نور عينيك ولم يعد يعنيني كثيراً أن أراه.

صيف 2015

ينادونني الجلاد

لا أدري ماذا يظن هؤلاء أنفسهم، وماذا تعني لهم تلك العبارات البالية.. على الرغم من أنني لم أحظ بفرصة كي أكمل تعليمي لكني شخص ذو خبرة وتجربة جيدة في الحياة،

وما كنت لأرمي نفسي في أحضان الموت في سبيل أوهام وخرافات كتلك الحرية التي ينادون بها.

يظنون أنفسهم مثقفين لكنهم ليسوا سوى صبية مدللين لا يدركون النعيم الذي يعيشونه، ليتني أدري فقط ما الذي ينقصهم.. إنهم يتمتعون بالصحة الجيدة ولديهم بيوت يأوون إليها في آخر النهار ولديهم ما يكفي من الطعام ولم يحدث أن تضور أحدهم جوعاً وفوق هذا كله يرتادون الجامعات التي أنعم عليهم بها سيادة الرئيس، لكن يا لنكران الجميل، بعد هذا كله يريدون إسقاطه.. هؤلاء الخونة!

لكني وغيري من الوطنيين لن نسمح لهذا البلد أن يسير إلى الدمار الذي يخطط له هؤلاء، وها نحن هنا نقوم بواجبنا تجاه رئيسنا وبلدنا عبر تلقين هؤلاء درساً لن ينسوه طوال حياتهم هذا إن بقوا على قيد الحياة.

المكان هنا قذر للغاية لكني اعتدت عليه، فقد فقدت حاسة الشم منذ زمن بعيد، لم أعد أشتم رائحة الدماء الممزوجة برائحة الجلد البشري المتعفن وبكل الأحوال لا يستحق الخونة الذين يأتوننا -يومياً بالمئات- أن يشتمّوا رائحة أفضل، يريدون أن يتظاهروا ضد السيد الرئيس! حسن إذاً؛ هذا هو المصير الذي يستحقونه، "يَنفُق" يومياً لدينا ما لا يقل عن خمسة عشر قذراً، أستمتع وزملائي بنقل جثثهم العفنة إلى المزبلة، ففي النهاية لقد سعوا إلى هذا المصير بأيديهم ولم يجبرهم عليه أحد.

هم متشابهون إلى حد كبير فكلهم عبارة عن هياكل عظمية بالكاد يكسو الجلد المتقرح أجسادهم التي أفناها الجوع والتعذيب، ولكن ألم يكونوا هانئين في ديارهم مع ذويهم يأكلون ويشربون، ما الداعي لأن يتدخلوا فيما لا يعنيهم وكيف يتجرؤون على المطالبة بما ليس لهم، ألا يعلمون أنهم

سيلقون هذا المصير "حرية، كرامة، عدالة..." ما هذا الهراء؟!

أنهيت للتو مكالمة هاتفية مع ابنتي العزيزة سلمى، البالغة من العمر ثماني سنوات، طلبت مني أن أحضر لها بعض الكرز فهي تحبه كثيراً.

ما أردت قوله هو أن حظ ذلك الشاب المدعو "موسى" كان جيداً جداً؛ إذ تلقيت هذا الاتصال فلولا ذلك كنت أنوي أن أُجّهز عليه اليوم، يستفزني ذلك القذر كثيراً... إذ لم أر مثله الكثير أثناء حياتي المهنية.. إنه لا يصرخ! ذاك التصميم الذي يرتسم في عينيه السوداوين يشعل في نفسي الرغبة بإنهاء حياته على الفور، كانت الدماء قد ملأت جسده وبدأت تنزف من فمه ومع ذلك لم يصرخ.. كنت سأقضي عليه اليوم لولا أن أنقذه ذاك الاتصال.

صيف 2012

اسمي زهرة

اسمي زهرة وأقطن في إحدى الحارات الضيقة في سيف الدولة مع أمي وأبي وإخوتي السبعة.

أنا في الثانية عشرة من عمري، أمي وأبي لا يزالان يعتقدان بأني صغيرة على أن يكون لي قرارات مستقلة أو آراء مغايرة لآرائهم، وبالتأكيد لا يتوجب علي أن أتدخل في أمور الكبار كالسياسة مثلا، لكني أرى أنهما مخطئان تماماً. أبي معارض للنظام لكنه يدّعي أنه لا يشارك في المظاهرات خوفاً علينا فلا معيل لنا من بعده، لكني لا أستطيع أن أصنف سلوكه هذا إلا جبناً، وهو حال أخي الكبير أحمد البالغ من العمر ستة عشر عاماً، إنه جبان ليس إلا!

أما أنا فلا أستطيع مشاهدة كل ما يحدثه النظام من جرائم دون أن أفعل شيئا، لا أستطيع أن أقف مكتوفة الأيدي إزاء ما حدث لأطفال درعا الذين اقتلعت أظافرهم من قبل المخابرات السورية لأنهم فقط كتبوا كلمة "حرية" على جدران مدارسهم.

لا أستطيع مشاهدة الأبرياء يقتلون بلا ذنب سوى أنهم طالبوا بحقوقهم، ولا أستطيع ألا أبدي أي رد فعل إزاء الدمار الذي سببه جنود الأسد في بلدي، يجب أن أتخذ موقفاً ولو بكلمة ولو بصرخة...

لذلك كنت أباغت والديّ وأستغل فرصة خروج المظاهرات في حيّنا كي أشارك بها، حتى أنني مؤخراً بت أشارك في تلك المظاهرات التي تحدث في الجامعة ولا شك بأنني أصغر مشاركة هناك على الإطلاق.

لا أستطيع القول إن الموضوع خال من الخطورة، فأنا معرضة للموت في أي لحظة بل ومعرضة لما هو أسوأ من الموت بكثير "الاعتقال"

خضت مغامرة رائعة في الأسبوع الماضي، كانت المرة الأولى التي أشارك فيها بمظاهرة في الجامعة في كلية العلوم تحديداً، لكن وبعد خمس دقائق من بدء المظاهرة بدأت الغازات المسيلة للدموع بالانهمار فوق رؤوس المتظاهرين، وكانت قوات حفظ النظام تجري خلفنا تماماً وتعتقل كل من يتسنى لها اعتقاله؛ سواء أكان من المشاركين في التظاهر أم لم يكن. فقدت القدرة على الرؤية وبدأت الدموع تنهمر من عيوني وشعرت بحرقة شديدة تمتد من حلقي على طول المري، أحسست بأن وجهي يحترق من أثر الغازات، حاولت الركض هاربة لكن قواي خارت ووقعت أرضاً، من حسن حظي أن شاباً ساعدني للهرب بعيداً عن الساحة وبعد أن أوصلني إلى مكان آمن صاح "اركضي" وعاد أدراجه.

تمنيت لو أتيحت لي الفرصة كي أشكره لكني لم أملك الوقت!
مساء هذا اليوم عدت آسفة أيضاً إلى المنزل، لقد لمحته مرة ثانية في مظاهرة مسائية في حيّنا لكن حدث ذلك عندما بدأ إطلاق الرصاص على المتظاهرين وبدأ الناس بالتدافع، شققت طريقي بصعوبة لأصل إلى مكانه، لكني لم أجده عندما وصلت إلى هناك.

أنا في صيف 2012
بالرغم من أن الامتحانات النهائية باتت وشيكة جداً ويتوجب علي الدراسة، لا سيما وأنني سأتخرج هذه السنة إلا أن أموراً أهم كانت تشغل بالي.
كنا نخرج يومياً في مظاهرات في كلية الهندسة التقنية أو كلية العلوم أو كلية الهندسة الكهربائية، صباحاً أو ظهراً حسب الحالة الأمنية، كما يوجد لدي مظاهرة مسائية كل يوم إما في حي بستان القصر أو صلاح الدين أو السكري أو سيف الدولة حسب الحالة الأمنية كذلك.
لا أصدق أن حلب أخيراً بدأت حراكها الثوري، ولا يسعني على الإطلاق أن أفوّت فرصة المشاركة في المظاهرات للتفرغ للدراسة حتى ولو كانت من أجل الدراسة لسنة التخرج.
موسى الحبيب.. لم يكن فقط رفيق الدراسة ورفيق الثورة، لم أصنفه يوماً على أنه صديقي أو حبيبي فهو أكثر من ذلك بكثير، لقد كان باختصار عائلتي.
كنا جالسين في المكتبة نحضّر للامتحانات وما إن مضت ساعة حتى مللت من الدراسة فبدأت أمازحه كالعادة محاولة إلهاءه أيضا عن الدراسة "موسى عطيني البس نظارتك ما عم شوف منيح"

وكعادته لم يتململ من مزحتي السخيفة التي أكررها يومياً وخلع نظاراته وأعطاني إياها عن طيب خاطر، وبعد أن وضعتها على عيني قلت له عبارتي المعهودة "هيك عم شوف أحسن".

فحصت عيوني عدة مرات ولم أكن أعاني من أي مشكلة، وأكد لي جميع الأطباء أن نظري ممتاز لكني لطالما رأيت ما حولي بشكل أوضح عندما أضع نظارات موسى.

دخل صديقنا محمود إلى المكتبة وهو يتلفت حوله بشيء من الحيطة وقد بدت على وجهه ابتسامة عريضة ثم اقترب منا وقال هامسا "اليوم الساعة 7 بسيف الدولة"

غمرتني الحماسة لأن يومي لن يمضي بدون أن أشارك بمظاهرة جديدة، فارس الحلو قال شيئاً أحسست بأنه يلامسني كثيراً "أول مرة تظاهرت فيها حسيت أني أول مرة عم أسمع صوتي" حدث معي ذلك حرفياً في أول مظاهرة لنا في كليتنا؛ لقد أحسست أني أسمع صوتي للمرة الأولى وحدث أن صوتي قد أعجبني وراق لي كثيراً، وأحببت منذ ذلك الحين أن أسمعه باستمرار.

توجهت مع موسى إلى سيف الدولة قبل موعدنا بنصف ساعة ووقفنا ننتظر، استطعنا أن نميز أولئك الذين ينتظرون مثلنا فقد كانوا مبعثرين هنا وهناك يدّعون أنهم يقومون بعمل ما أو يتحدثون أو يتسكعون بالمنطقة، وما إن صاح أحدهم "اللّه أكبر" حتى اجتمعنا كلنا في كتلة واحدة وبدأنا بالهتاف "الشعب يريد إسقاط النظام"

استمررنا بالتقدم في الحي كنا حوالي مئتا شخص، كان صدى هتافاتنا يرتد في كل الاتجاهات حتى بدت وكأنها قادمة من السماء، وما إن مضى

خمس عشرة دقيقة حتى سمعنا صوت إطلاق الرصاص.
الفرق بين مظاهرات الجامعة والمظاهرات في الأحياء، هو أن احتمال الموت في الجامعة قليل مع أنه حدث قبل ذلك، واحتمالات الاعتقال أعلى بكثير ففي كل مرة يعتقل الأمن عشرات المتظاهرين، أما في الأحياء السكنية فكان الرصاص لا يخطئ إلا من كتب له البقاء.
انتشرت موجة ذعر بين المتظاهرين إذ كان الرصاص كثيفاً، وبدأنا بالتفرق والدخول إلى الشوارع الفرعية بعيداً عن الساحة الرئيسية، حتى الناس الذين لم يكونوا مشاركين بالمظاهرة بدأوا أيضاً بالركض هرباً من الرصاص.
في تلك اللحظات يتوقف العقل عن التفكير، وكل ما يحركك هو دافعك للبقاء فقط، أمسك موسى بيدي بقوة وركضنا معاً بينما كان الناس يتدافعون من حولنا، كان قلبي يخفق بشدة ولم أستطع الاستمرار بالركض بنفس السرعة، افترقت يدانا عن بعضهما وحال الناس بيننا، رحت أبحث عنه في كل الاتجاهات، يستحيل علي أن أغادر دونه، ولم أشعر بالسكينة إلا عندما التقت عينانا أخيراً.
خرجنا في النهاية سالمين لم يكن هناك خسائر سوى بضعة خدوش، ونظارة موسى التي وقعت أرضاً بينما كان الناس يتدافعون في الزقاق الضيق.

صيف 2014
اسمي زهرة
غادرنا منزلنا مع أبي وأمي وأخوتي الخمسة أو مع من تبقى منهم، نقطن الآن في أحد المخيمات الموجودة في كلّس التركية، بعد أن تحول حينا إلى

مدينة أشباح.. منذ فترة سمعنا بأن منزلنا هناك بات كومة من الركام، لم أحمل معي الكثير من ذلك المنزل عندما غادرنا، حملت فقط الكثير من الذكريات.. بالإضافة إلى بعض الثياب ونظارات ذاك الشاب ذي العينين السوداوين علني ألقاه ذات يوم.

لبنى زاعور

اللامنتمي

هل تنتفض الثورة لأسباب شخصية؟!

- أنا محظوظة جداً لأنني لم أقضِ الشهور التسعة الأولى لوحدي منذ تكويني، فقد كنت برفقة شخص آخر يبدد وحشتي في ذلك المكان المرتاب، حيث لم نكن نملك أي انتماء، لا اسم ولا عائلة ولا جنسية ولا عرق، انتماؤنا الوحيد كان رحم أمي وحبل مشيمتها.

فارقني من قضى معي هذه الأشهر لمدة نصف ساعة، نعم سبقني إلى الحياة، ثلاثون دقيقة فقط بقيت خطيئة أخي مدى الحياة لتركي وحدي ربما!

ولدنا أنا وشقيقي بتاريخ 7 نيسان 1990 شهر الربيع الذي يجمع الشتاء والصيف معاً، لكن هذا التاريخ بالذات بات اليوم مصدر شؤم لكثير من السوريين (السابع من نيسان هو ذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي، الحزب

الحاكم في سوريا والكاتم لأنفاس السوريين بحجة مقاومة العدو).
تولى أبوينا اختيار أسمائنا فكنت أنا لبنى وهو قيس، وذلك بناءً على قصة الشاعر قيس بن ذريح الذي لُقب "قيس مجنون لبنى" لشدة عشقه لها، وهي من القصص العربية المشهورة التي تكتب فيها الأشعار.
لا أتذكر أي شيء من السنوات الخمس الأولى من عمرنا، ولا أملك الكثير من الصور التي تجسد طفولتنا حينها ربما لأننا جئنا اثنين دفعة واحدة، ولم يكن هناك متسع من الرفاهية والوقت لالتقاط الصور لنا.
في السادسة من عمري، ذهبت أنا وقيس إلى المدرسة لأول مرة، أذكر أنني لم أكن متحمسة كثيراً حينها، وكنت أشعر أنه على عاتقي مسؤولية "تجعلني أكبر من عمري الحقيقي" تجاه أخي الذي لم أكن أجيد توصيف حالته بشكل دقيق، فقط كنت أعرف أن قيساً مختلف قليلاً عن باقي الأطفال.
أنا الطفلة الخجولة التي لا تتحدث كثيراً، وقيس الطفل المشاكس كثير الكلام لا يأبه لقوانين المدرسة ولمُعَلِمة الصف التي وعدت أمي بأنها ستستوعب حالته وتداريها.
كان قيس يتعلم ببطء ويكتب -بيدين مرتجفتين- الأحرف الأبجدية التي درسناها في البداية، فيطمس الحروف بشكل عشوائي في نصف الورقة دون التقيد بالكتابة على السطر، الأمر الذي كان يثير غضب المُدرّسة.
كنت أشعر أنه طفلي وأنا أمه في المدرسة، فأنتظره أمام باب الحمام لأساعده على إغلاق زر سرواله، وأعقد له ربطة حذائه حين تفلت، هذه المشاهد كانت متعة لباقي الأطفال ومحط سخريتهم، فكيف لطفلٍ مثلهم أن لا يجيد عمل هذه الأشياء البسيطة لوحده؟!، كنت أشتمهم في سري

وأحزن لأنني لا أعرف ما أقوله لهم.

مع الوقت بدأ صبر المُدرّسة ينفد، وأخذت -أحياناً- تضرب أخي وتوبخه أمام باقي الطلاب، حتى إنها أصبحت تطرده من الصف فيلجأ إلى المستخدمة الجالسة في غرفة صغيرة في وسط الباحة، كنت أطمئن حين يخرج من الصف لأن المستخدمة "سهى" كانت تحب قيساً كثيراً، تلعب معه وهو أيضا يحبها كثيراً، مازال يذكرها حتى الآن.

لم يكمل قيس دوامه في المدرسة لأن الكادر الإداري طلب من والديّ عدم إرساله مجدداً.

ما زلت حتى الآن أشعر بالذنب لأنني حينها فرحت بالتخلص من مسؤوليته ومن السخرية بحق قيس التي كانت تشعرني بالخجل وقتها.

عندما كبرت عرفت أن قيساً تعرض منذ ولادتنا لخطأ طبي -من طبيب أحمق- أدى إلى نقص أوكسجين في رأسه ونتيجة لذلك فقد قُتلت عدد من الخلايا الدماغية، الأمر الذي جعل قيساً كل عمره بحاجة للعناية فهو ليس لديه القدرة على التركيز بالأمور العملية الدقيقة "كالكتابة والقراءة" لكنه يتحدث بشكل طبيعي، يفهم ما يقال، ولديه ذاكرة لا تنسى أبداً؛ قيس يحفظ الأسماء والتفاصيل بشكل متقن ورهيب، وجميعنا في البيت عندما ننسى قصة ما، يبادر قيس لتذكيرنا بالقصة بتفاصيلها حتى وإن مر عليها أكثر من عشر سنوات.

أصبح قيس مولعاً بالرياضة وخصوصاً كرة القدم حتى بات يحفظ أسماء العشرات من اللاعبين وأسماء المنتخبات العالمية ويحفظ مبارياتهم وأهدافهم بتفاصيلها، يحلل المباراة أثناء مشاهدتها، قالها عمي مرة مازحاً: "ما بقي لقيس غير يحفظ أسماء الجمهور الحاضرين بالمباراة"!

حاول والديَّ احتواء قيس وتطوير مواهبه، كانا يعاملانه على أنه شخص طبيعي مئة بالمئة، لكن المجتمع لم يتقبله وكان يعامله على أنه إنسان مختلف، إذ كثيراً ما كانت نظرات الناس تفسر استغرابهم حول شكل أذنيه المختلف بعض الشيء عن شكل الأذنين الطبيعي.

لم يترك أبي باب طبيب مختص بالأمراض العصبية إلا وطرقه عله يجد علاجاً لقيس، كان معظم الأطباء يقولون إن علاج تلك الحالات غير متوفر في سوريا، بينما وصف له أحد الأطباء بعض الأدوية التي تثبط من نشاطه وتجعله هادئاً طوال الوقت على غير عادته، الأمر الذي اضطر أهلي لإيقاف جرعات الدواء الذي لم يظهر أي نتائج إيجابية.

كذلك لجأ أبي إلى الطبيب العربي الذي يعالج مرضاه بالأعشاب والنباتات لكن شيئاً من هذا لم يفلح في علاج قيس.

استسلم والديّ لمحاولات علاج قيس بعد أن نفدت السبل أمامهم، لكنهم لم يستسلموا لعنايته وجعله فرداً ناجحاً في المجتمع، فباتوا يبحثون عن مراكز تعليمية ومعاهد تعنى بحالته وتطوّر مواهبه وتستثمر قدراته.

كانت عملية البحث شاقة لقلة وجود مثل هذه المراكز وندرتها. وبعد فترة سجل قيس في جمعية لذوي الاحتياجات الخاصة، إلا أن جميع الحالات التي برفقته كانت للمصابين بمتلازمة داون التي سوف تؤثر على نفسيته بشكل سلبي حتماً... ترك الجمعية، وبعد جهد من البحث وجدنا معهداً يعنى بحالات صحية مشابهة لحالة قيس، كان المعهد عبارة عن بيت عربي كطراز المنازل الدمشقية القديمة، يتكون من طابقين ويتوسطه ساحة تسمى "أرض ديار" في منتصفها بحرة ماء صغيرة، تعهدت مديرة المعهد أنه سيتم تعليم قيس المهنة التي سيحبها وسيتم إعطاؤه نشاطات لتطوير

موهبته، لكن بعد أيام قليلة من بدء دوامه في المعهد عاد قيس ليخبرنا أن المديرة تطلب من الطلاب تنظيف المنزل وتوزع مهام العمل فيما بينهم، فأحدهم يكنس الأرض، وآخر يجلي دون تعليمهم أي صنعة أو القيام بأي نشاط يطورهم.

وصلنا إلى حالة العجز واعتدنا على الوضع سنوات عديدة، صار لقيس الكثير من الأصدقاء الذين يحبونه ويكبرونه عمراً ويستوعبون حالته، فهو بدأ بمرحلة الشباب، أصبح طويلاً وجذاباً ببشرة سمراء وشعر أسود وعينين بنيتين، صاحب نكتة وشخصية اجتماعية قوية لا تجيد المجاملات والكذب ولا تتقن النفاق، شخص بسيط أو فطرته طيبة.

تحرقني التفاصيل التي تخطر في بالي بشأنه فهو أصبح شاباً بالغاً، وكلما كبر زادت حاجاته الإنسانية، تلفت أنظاره الفتيات ويتمنى أن يعيش قصة حب مع إحداهن ككل الشباب في عمره، يزداد عجزي حين يحدثني عن الفتاة التي يحبها ويلاحقها دون أن يتجرأ على الحديث معها ربما لأنه أصبح يعرف حالته بشكل دقيق وربما لأنه يخجل!

ذات يوم مشؤوم عاد قيس إلى البيت مصفر الوجه ومرتبكاً، ركض نحو غرفتي المشتركة مع أختي، وبدأ يحاول امتطاء الخزانة العالية للاختباء، لم يقل إلا كلمة: "أنا بريء".

دقائق قليلة ويطرق باب البيت بقوة، كانوا رجال الشرطة يطالبون بقيس، حاول أبي فهم الموضوع لكنهم رفضوا وطالبوا باقتياده معهم، كان قيس منهاراً يمسك بإحدى حقائبي ويفرغها أمام العناصر ويشد العنصر من يده ويقول له "شوف ما في شي، فوت فتش البيت كلو".

اقتادت الشرطة قيساً إلى المخفر وهو يبكي منهاراً من شدة الخوف، سارع

أبي في تتبعه مع شباب الحي ورفاقه الذين تضامنوا مع قيس ولحقوا به.
في المخفر دار حوار آخر..
عنصر الشرطة: قيس متهم بسرقة موبايل وجوازات سفر ومبلغ من المال لسيدة عراقية تسكن في حارتكم، وقيمة السرقات تقدر بـ 35 ألف ليرة سورية.
أبي: قيس لا يسرق ولا يمد يده على شيء ليس له وليس باستطاعته تحضير المكائد لفعل ذلك.
العنصر: لقد اتهمته هذه السيدة بسرقتها وقام قيس بإقفال جهاز الاتصال كي لا يكشف.
أبي: لكن قيساً لا يجيد القراءة ولا يتقن استخدام الموبايل، هو إنسان بسيط.
العنصر: إذاً سيبقى قيس هنا يومين، وكما تعرف غداً وبعده عطلة رسمية وسنكمل التحقيقات بعد انتهاء العطلة.
أبي: لا يمكن بقاء قيس هنا، ضعوني بدلاً عنه أرجوكم.
(قيس مصدوم ولا يعي ما يفعله، جلس على الكرسي ورفع قدمه على ركبته الثانية دون اكتراث "لهيبة" رجال الشرطة، فقام أحد العناصر بضربه على قدمه، وعاد أبي يتوسل لهم بعدم ضربه، ويشرح وضعه الصحي، وأن تصرفات قيس نابعة عن بساطة وعدم وعي).
بدأت السيدة التي تدعى "أم حازم" بمساومة أبي، كانت امرأة قوية وصوتها عالٍ، ساومت أبي على دفع مبلغ من المال مقابل التنازل، بدؤوا يتفاوضون على قيمة المبلغ، وافقت أم حازم على أخذ مبلغ 5000 آلاف ليرة أي ما يقارب ربع قيمة المبلغ الذي ادعت سرقته، ولم تسأل عن وثائق السفر

ولا عن جهاز الموبايل الذي زعمت أيضاً سرقتهم، فقط كانت تريد المال.
اقترب الشرطي من قيس ضاحكاً متهكماً، ضربه ضربة خفيفة على رقبته وقال له: "روح أنت بريء".
وكان رد قيس على الشرطي قاسياً ومؤثراً أبكى أبي: "شكراً سيدي، أنا ابن بلدك".
اعترض رفاق قيس وشباب حارتنا على هذه الحادثة واتهموا الشرطة بالتواطؤ مع السيدة في القصة لكسب المال، وأنها عملية نصب تُنتهج لاستلاب المال من الناس البسطاء. الغريب في القصة حد الصدمة أن السيدة أم حازم التي اتهمت أخي زوراً، لديها ولد أبكم لا يستطيع الدفاع عن نفسه، تماماً كحالة أخي قيس.
قيس اللامنتمي لحياة كالحياة، كان يعيش في بلد تحكمه سُلطة لا تسعى إلا لزيادة تجذرها في عروقنا، يعيش في بلد توجد فيه عشرات الفروع الأمنية لا لشيء، بل فقط لكم الأفواه. هنا لا شيء يتطور سوى الخوف، تغيب عن بلدنا مؤسسات التنمية والرعاية وحقوق الإنسان، تكثر فيها جمعيات الاستغلال والسرقة.
حتى المجتمع شارك بظلم قيس بنظرته الازدرائية، بسخريته وتربية أطفاله على أن مثل هؤلاء الأشخاص "معاقون ومجانين" وبأنهم فرصة للترويح عن النفس ومصدر للتسلية والسخرية، يشارك المجتمع المغيّب عن المفاهيم الإنسانية منذ سنين بعدم فهم هؤلاء الأشخاص وبتحميلهم عبء وضعهم وكأنهم خلقوا بمحض إرادتهم.
هل الثورة تنتفض لأسباب شخصية؟ طوبى لثورة اللامنتمين!

شيرين حايك

أحلام صغيرة

لا أخفي أنني فكرتُ مراراً عديدة بالانتحار، وأشكّ بأنّ سوريّاً عاشَ على تماس مباشر، أو غير مباشر، مع الأخبار والأحداث في سوريا لم يفكّر يوماً بالأمر. فهو ليسَ أكثر من الثورة المطلقة على هذا الكمّ من اللاعدالة التي أصابتنا. لكنني لم أجرؤ يوماً على التنفيذ لأنني ببساطة أحبّ الحياة وأحبّ هذا الكون بكلّ لا عدالته المفروضة علينا. أحبّه، وأحبّ الكمّ الكبير من التفاصيل الجميلة التي تجمعني فيه مع بشرٍ آخرين ومع الطبيعة والجمال الكونيّ الهائل والفنّ والموسيقى والتطوّر الإنساني العظيم، بكلّ تفاصيله التي تبحثُ بدورها عن العدالة دائماً.

كنتُ ما زلتُ أدرسُ في الولايات المتحدة الأمريكيّة عندما اندلعت الثورة في سوريا في آذار 2011، وكنتُ مدركةً بحتمية نصرها نظراً لإيماني بفكرة العدالة. أذكرُ الفيديوهات

الأولى القادمة من درعا حاملة معها أصوات فوضى فوارغ الرصاص وعبثيّة الأقدام التي تحاولُ الهرب مع أصوات الصراخ والهتاف. كنتُ أتابعها بغضب أتشاركهُ مع الأصدقاء الأمريكيين والسوريين والعرب مدركين جميعاً كم هو أمرٌ لا أخلاقيّ ولا عقلاني ولا إنساني قتل الأبرياء المتظاهرين لمجرّد أنّ النظام اعتقد للحظةٍ أو لأخرى بأن بقاءه أكبر قيمة من الشعب.

"الشعبُ أولاً، والشعبُ ثانياً وثالثاً والشعبُ دائماً، مهما كُسرنا سأبقى أؤمن بهذه العبارة".

تتابعت الأحداث ودخلت مدينتي الصغيرة -حمص- في الثورة، كانت هذه المّرة الأولى التي أسمعُ فيها أصوات الرصاص التي كانت تأتيني من الفيديوهات سابقاً، على سماعة الهاتف، أسمعها تأتي بعيدةً وقويّةً وكأنها صوتٌ في الخلفيّة يحاولُ خطف الحديث، أتخيّلُ شكل الشارع الذي نشأت فيه وهو يعجّ بالمتظاهرين والرصاص، أحاولُ أن أطبّقَ عليه الفيديوهات السابقة من درعا ولا خيال يكفي لأن أغتال قباحة الواقع.

هل هي مصادفة أن المجزرة الأولى في الثورة حدثت في مدينتي؟

حمص مدينة تقع في وسط سوريا، تعتبر من أكثر المدن مرحاً؛ يروى عنها أنّها انتصرت على "تيمورلنك" -الجزار الذي اجتاح مدناً كثيرةً قبلَ حمص- عندما استقبلتهُ بالضحك والفكاهة والدعابة لدرجة اعتقاده بأن أهلها مجانين، وأنّ الجنون مرض معد فقرر عدم دخولها.

تتالت بعدها المجازر إلى أن باتت شيئاً اعتيادياً أو جزءاً من تفاصيل الحياة اليومية المعاشة. عندما كنت في أمريكا اقتصرت في الحصول على المعلومات على التواصل اليوميّ مع الأصدقاء الذين يخرجون في مظاهراتٍ

تعودُ بائسةً مرّات، منتصرةً مرّات عديدة أخرى، ثم مع الوقت انخرطتُ بتجمعات ثوريّة على الإنترنت وبتنا نخطط ما كنّا نعتقد بأنّهُ ذو فائدةٍ محليّةٍ ودوليّة في حمل رسالة الثورة والوفاء لدماء من قتلهم نظام الأسد كي يسكتنا جميعاً.

كنا أبرياء حقاً.

في تلك الفترة كان الغضب ما يزال ثوريّاً... كنتُ أغضب لأن الوحش الذي يقتلنا أقبحُ من قدرتنا على مجاراتهِ للانتصار، أو أغضب لأنّني لا أستطيع أن أكون هناكَ مع المتظاهرين في الثورة أركضُ معهم ونركضُ باتجاه ما نعتقد أنّهُ الحياة في الأفق، لكنني طوال ذلك الوقت كنتُ أؤمن بأننا على حقّ، وهذا الشيء الوحيد الذي كان يحرّك الأمل بداخلي.

لم يكن أحد يعتقدُ بأنّ الثورة ستمتدّ سنين، بل كان معظمنا يعتقدُ بأنها ستنتهي بعدَ أسابيع أو أشهر في أسوأ الأحوال، لذا كنّا نشدّ جراحَ بعضنا البعض آملين أننا سنصلُ معاً نحو الضفّة الثانية من الحلم، لكن هذه المعطيات بدأت تتغيّر عندما حضرَ الموت والاعتقال ليدقّ بابنا ملتهماً أصدقاء مقربين، فمهما كان حزننا على الشهداء عامةً كبيراً ومؤلماً، فحزننا على الأصدقاء أشدّ اصطداماً بالواقع.

تسلّحت الثورة، وعارضناها معارضة الأب المتشدد لزواج ابنته من رجل غربيّ يمتلك عادات وثقافة مختلفة؛ بأثرٍ رجعيّ ربما، إلا أنني اليوم أشعرُ بأنه كان علينا أن نفكّر بشكلٍ أكثر عقلانيّة فلربما كان يمكن التحكّم بتوجيه السلاح بدلاً من مقاطعته التي ولدت اليوم أشكالاً أكثر قبحاً من السلاح وحده.

أقولُ نحنُ وأنا أعني الأصدقاء والثوار الذين كنتُ أشعرُ معهم بأننا واحد؛

جسدٌ من الأفكار والثورة، نشبه بعضنا كثيراً. وأؤكد طوال الحديث بأننا "نحنُ" ولستُ "أنا" لأنني ﻓﻲ تلك الفترة كنتُ أشعرُ تماماً بأنني جزء من الكل، الجميع يعمل كلّ وفق قدرتهِ ليدعم الثورة والآخرين، كانت المرّة الأولى التي أشعرُ فيها بالانتماء الحقيقيّ لشيء ما بالمطلق.

بالعودة للأنا:

ﻓﻲ 21 آب 2013 كنّا قد هزمنا مرّاتٍ عديدة لكن على الرغم من كلّ القتل والتدمير الذي تسبب به النظام السوري، وكلّ الظلم والقهر، وكلّ "القذارة" كنتُ قادرة حتّى ذلك التاريخ على التعامل مع الأمور بأنّ شيئاً ما مازال ينتظرنا ﻓﻲ نهاية النفق، كنتُ قادرةً على الشعور بأنّه يمكن لشيء ما نفعلهُ من كتابة مقال أو رسم لوحةٍ أو التوجه للعالم أن ينجح ﻓﻲ تغيير هذا الوجه الذميم للحقيقة أو الواقع، لكن بعدَ هذا اليوم بدأ شعور آخر يلازمني "لم يعد هناك قيمة لأيّ شيء".

ﻓﻲ هذا التاريخ كان" ١٤٦٦ سوريّاً من بينهم ٤٢٦ طفلاً" قتلوا ﻓﻲ ساعة واحدةٍ بسبب هجوم نفذته قوات الأسد على الغوطة الغربيّة، لا أذكرُ شيئاً عن تلك الليلة، كانت المعلومات الأولية تتحدث عن استخدام الأسد "للكيماوي" ولم يكن من الممكن تصديق الخبر منذ البداية أو ربما لم نشأ التصديق! ثمّ وصلت الصور، ثقيلة، مؤلمة، صادمة. لم تكن الصور المعتادة للجثث التي يقصفها النظام فتتشوّه معالمها وتفقدُ شيئاً من ملامحها اليوميّة، كانت الملامح واضحة، الوجوه مبتسمة أو نائمة وكأنّها جزء من فلم جمّدت الحركة فيه، أذكرُ صورةً لسيّدة ورجل ومعهم طفل والسيدة تبعدُ قليلاً عن الرجل والطفل وبالقرب منها فاكهة ما لا أذكر نوعها؛

مشهد بدا لي أنّهُ يشبهُ نهاية عرض مسرح الدمى عندما يقومُ اللاعب بتحرير الدمى من بين أصابعه لتتصالح مع الجاذبيّة الأرضيّة التي تجذبُ كلّ شيء أرضاً في مكانه، في هذه الصورة اجتمع مشهد الحياة والموت.

أفكر ما الذي كانت العائلة تقومُ بالتخطيط لهُ قبل وقوع المجزرة، هل كانت تقومُ السيدة بتحضيرِ الفاكهة لتكونَ عشاء؟ أم أنّها تقومُ بالتحضير لغداء اليوم التالي؟ أم أنّهم مثلنا يجوعون ليلاً ويحاولون عدم الاعتراف بأنهم لا يقاومون ويأكلون ليلاً؟ لم يعد ذلك بالأمر المهم، فقد ذهبوا ولن يتمكنوا من إنجاز ما كانوا يخططون له.

في تلك الليلة كانت هناك خليّة من "الخيبة العنيدة" تدور كالنحلِ حولَ شبكة الإنترنت؛ بوسترات وفيديوهاتٍ وأخبار وصور وترجمة مقالات تكتب في هذا الصدد، كلٌّ يحاول أن يخبر العالم ماذا حلّ بالشعب الذي قتل، فيديوهات تخرج لتؤكّد بأنّ الأسد قد قامَ باختراق خطّ أوباما الأحمر واستخدم السلاح الكيماوي، معتقدينَ بأنّ هذا سيغيّر من الأمور كثيراً في الساحة السياسيّة،

كم كنّا ساذجين حينها!

أمّا أنا فأمضيتُ الليلة كاملةَ أحدّقُ في الوجوه الباردة، أكوام من الأطفال تجمّعت قربَ بعضها باصطفاف منتظم مع أرقام على جبينها للإحصاء، كنتُ أريدُ أن أذكرهم جيّداً وأتساءل عن أسمائهم وأحلامهم كي أحاولَ تحقيق ما يمكنُ منها، أردتُ أن أتذكر وجوههم جيّداً وإلى الأبد.

في الأيّام التي تلت المجزرة تحدّثَ الرئيس الأمريكيّ عن إمكانية التدخّل في سوريا ردّاً على اعتداءات الكيماوي، وهنا تماماً كانت نهاية الأمل في هذا العالم. خرجت الأمم في كلّ مكانٍ في مظاهراتٍ بعدها مباشرةً تندد

بالتدخّل الأمريكي -الذي لم يكن قد حصلَ بعد- في سوريا دون خجلٍ من أنها لم تحرّك ساكناً على مجزرة الكيماوي الواقعه منذُ أقلّ من يومين بحجّة أنّ الأدلّة غير واضحة.

لا أعرف إن كنتُ أنتظر من المجتمع الدوليّ والرأي العام العالمي أيّ ردّ فعل حقيقيّ، ولكن من المؤكد أنني شعرتُ بالخذلان عندما لم يحرّك ساكناً على مجزرةٍ كهذه. ولو اكتفوا حينها بالصمت فقط لربما كنتُ سأقبلُ الأمور بسهولةٍ أكبر، فمظاهراتهم المستفزّة بعد أيّام، داست على جباه الأطفال الذين قتلوا في الغوطة. سافرت حينها إلى إسبًانيا بهدف المشاركة في إحدى المظاهرات التي كانت تندد بالتدخل الأمريكي في سوريا، كنتُ أودّ أن أذكر كلّ شيء وأشبعَ نفسي بالصدمة لمرّة واحدة كي أستقيل من فكرة الأمل بأي شيء من هذا العالم بعدها.

وفعلاً كنتُ محقّة، سامحت الولايات المتحدة الأسد على فعلته شرط أن لا يكررها وصمت العالم عن الضجيج قبلَ أن يعود كلّ شيء إلى ما كان عليه دون أيّ موقفٍ "الأسد يقتل الشعب السوري، والتدخلات الخارجيّة من الخليج إلى إيران وروسيا والولايات المتحدّة وغيرها من العوامل السياسيّة، تتابعُ ترتيباتها الفارغة وتغيير خرائط المصالح والنفوذ مرحلياً أو وقتياً بدخول السلاح وخروجه وتسمية المعارك على أجساد ثوارنا".

توقفتُ بعدها عن الكتابة والرسم والقيام بأيّ عملٍ يستهدفُ جمهوراً غير الأطفال، بعد المجزرة، لم يعد لديّ شيء أقوله لهذا العالم الذي لا يرغب أن يسمع، لأن ذلك يتعارض كليّاً مع ترتيباته المعطاة مسبقاً.

يتفاقم غضبي اليوميّ الذي مازال يبحثُ عن عدالة تنجح في لجم "جموحه المتقد"، هذا الغضب ثقيلٍ ومتعب فمعهُ تصبحُ كلّ الأشياء أصعب وأعنف،

تبدو المواقف اليوميّة الصغيرة أكثر قيمة مما هي عليه، تحصيل العدالة الصغيرة بمواقف لا تذكر؛ على موقف سيارةٍ أو حقّ في حريّة التعبير أو اختيار وجبة في بارٍ تبدو مهمّة جدّاً فهي الجزء الوحيد الذي يمكنني أن أستشعرهُ من العدالة المطلقة. أحاولُ التمسّك بهذه الحقوق اليوميّة بشكلٍ شرس لأنها الشيء الوحيد الذي مازال يربطني بالعدالة نفسها التي تربطني هي بدورها بالحياة. لا حياة دون عدالة، هذا أمرٌ لا جدل حوله، وشعور اللاعدالة يقتلُ أيّ رغبةٍ أو قدرة على الحياة معهُ وأنا أشعرُ باللاعدالة الجمعيّة.

أتواجدُ في مجلسٍ ما في أوروبا وأهاجَم بثورتي بحجّة أنّها إرهابيّةٌ حيناً، وأنها لم تستطعْ الدفاع عن نفسها أحياناً أخرى، كنتُ أدافعُ عن هذه الثورة بدايةً أمّا اليوم فأنا لا أردّ على أيّ هجومٍ كهذا، فما الذي يمكنُ قولهُ لمن سيسكتُ على قتلي غداً؟

لن تغيب هذه الفكرة عن ذهني أبداً عندما أتعامل مع هذا المجتمع، أفكرُ في كلّ مّرةٍ ألتقي فيها مع أشخاص جدد إن كانوا سيسكتون على قتلي! فهؤلاء الذين يتشدقون عليّ اليوم بإنسانيتهم صمتوا على قتل الكثيرين قبلي وسيصمتون حتماً عندما أقتل غداً، لذا لن أقوم بمساعدتهم على ذلك وسأزدادُ تعلقاً وحبّاً بهذه الحياة "بغضبي ولا عدالتها".

فراس العلي

قف، حاجز عسكري!..

من غير العادي أن يرى الإنسان الموت بعينيه ويدور في خاطره شريط حياته منذ الولادة خلال عشر دقائق بينه وبين حاجز عسكري خطير لكن الحظ ولأوّل مرّة يكون حليفه.

في صيف 2008 كنت قد انتهيت من دراسة المرحلة الثانويّة منتظراً المفاضلة العامّة؛ الخاصّة بالجامعات الحكوميّة كي أقدّم على اختصاص جامعي وأتابع مشواري الدراسي، ذاك الوقت ارتفعت معدّلات القبول بشكل ملحوظ لدرجة أنّ مجموعي البالغ 76٪ من المجموع العام لم يؤمّن لي مقعداً جامعياً، فاضطررت للتسجيل في مفاضلة الموازي والتي يتطلّب التقدّم إليها مبلغاً سنوياً قدره ألف دولار.

بعد نقاشات طويلة مع والديّ تقدّمت لمفاضلة "الموازي" وجاءت نتيجة القبول في كلية الحقوق الثانية بمدينة الحسكة

والتابعة لجامعة الفرات، وما هي إلّا أيّام حتّى افتتحت الجامعة استكمال التسجيل، لأذهب لأوّل مرّة إلى مدينة لا أعرفها من قبل، في الوقت الذي قُبل معظم أصدقائي في جامعات حلب وحمص واللاذقية ودمشق.

أتممت سنة كاملة من الدراسة وتأقلمت مع طبيعة الأهالي وتقاليدهم إلى أن وصلت للسنة الثالثة التي تزامنت مع بدء الاحتجاجات في سوريا، وكنت من أوائل من شاركوا بها في الحسكة لكن بالخفية وبأسماء مستعارة.

حتى عام 2011 لم تفقد الطرق العامّة التي تصل بين المدن السوريّة الأمان، حيث كانت الحركة التجاريّة وتنقّلات المسافرين على أوجها، لذا أكملت دراستي وبقيت كلّ فترة أزور عائلتي المقيمة في ريف حلب، فالطريق بين الحسكة وريف حلب يستغرق ذاك الوقت نحو أربع ساعات.

بعد وقت ليس بطويل أصبحت الأمور تسوء شيئاً فشيئاً ومن جميع النواحي، إدارة الجامعة تغيّرت مرّتين خلال سنة والفساد الداخلي انتشر بشكل ملحوظ وعناصر الأمن توزّعوا بالجامعات وأحياء وشوارع المدينة بالحسكة، إلى درجة أنّ بطاقتك الشخصيّة ستُطلب من عنصر أمن في كلّ مرّة تخرج فيها من المنزل.

ما سبق جعلني أعود مُجبراً إلى مدينتي بريف حلب، ومادّة واحدة تفصلني عن التخرج! لكن لم أكترث لذلك فمستقبل المتخرّجين ليس بأفضل حال منّا، "مثلهم مثلنا"، يبحثون عن عمل دون جدوى، فتركت الدراسة بالتزامن مع تحرير مدينة منبج من القوّات الحكوميّة.

هنا عدتُ إلى مدينتي وشعرت بأنّ فرصتي ومكاني المناسب في منطقة محررة من جيش النظام وفروعه الأمنيّة، ليس فيها اعتقالات ولا محسوبيّات بين موظّفي الدوائر الحكوميّة ولا أيّ نوعٍ من الفساد.

بعد وصولي لمدينة منبج التي تبعد عن حلب 80 كيلومتراً، رأيت التفاؤل مرسوماً على وجوه الأهالي وقد تخلّصوا من ظلم عناصر الأمن بعدما طردوهم إلى منطقة سد تشرين، ذاك الوقت تجوّلت في المخافر الأمنيّة لم أرَ شرطة بل رأيت مدنيين يحملون السلاح وينادون فرحين بالسيطرة على المدينة.

لم أستطع وقتها إلّا أن أشارك في نشاط ثوري مناهض للحكومة، لاسيما بعدما رأيت على شاشات التلفاز الجرائم الشنيعة التي ارتكبها العناصر في درعا وحمص بحقّ المدنيين العزّل إضافة للاعتقالات العشوائيّة بحقّ طلاب الجامعات الثائرين، فشكّلت أنا وأصدقاء لي بالمدينة جريدة سياسية اقتصادية اجتماعية تحمل بشكل عام فكراً ثوريّاً.

كنت وأصدقائي نعتبر هذا الأمر إنجازاً كبيراً؛ خاصّة أنّها الجريدة الأولى على مستوى حلب وريفها. تابعت عملي كصحفي وتعلّمت عبر عملي المتواصل والكتب الإلكترونيّة التي كنت أقرأها في الإنترنت، ما جعلني أتناسى إكمال دراستي، إلى أن دخل تنظيم الدولة وسيطر على منطقة ريف حلب وطرد الثوّار ولاحق الناشطين والصحفيين، وقتها خرجت إلى تركيا حاملاً معي أغراضي المتعلّقة بعملي ومتسائلاً عن المجهول الذي ينتظرني في بلد غير بلدي.

مضت أيام وأشهر طوّرت خلالها عملي، لتعود -بعد سنة من الاستقرار في تركيا- فكرة إكمال دراستي رغم أنّ الشهادة الجامعيّة أصبحت مجرّد حبرٍ على ورق فيما يتعلّق بمستقبل السوريين، ليس هذا كلامي بل كلام شابٍ متخرّج حديثاً من كلية الصيدلة بحلب ويعمل على "بسطة" صغيرة يبيع التبغ في حي شعبي في مدينة غازي عينتاب التركية، حيث قال لي

"الشهادة الجامعيّة لا تُقدّم ولا تؤخّر وأنا خير دليل".

لكنني كنت مصمّماً على إكمال دراستي خاصّة أنّه بقي لديّ مادة واحدة تفصلني عن التخرّج، استشرت أصدقائي بالموضوع، ورغم معارضتهم له هيّأت نفسي وكتبت خارطة طريق كي أدخل إلى مدينة الحسكة مرّة أخرى وأقدّم مادتي الوحيدة.

حزمت الأمتعة واتجهت شرقاً نحو ولاية تقع جنوب شرق تركيا، وقريبة من حدود مدينة الحسكة -تبعد عنها نحو 90 كم بالحافلة- وكان لا بد من الدخول عن طريق المعبر الذي أشرفت عليه من الجانب السوري وحدات حماية الشعب التابعة للإدارة الذاتية.

في صباح يوم الأحد وفي شهر تموز عام 2014 بدأت رحلتي المجهولة المصير، فحسب الخطّة طريق العودة سيمرّ من الرقّة وريف حلب حيث تواجد تنظيم الدولة.

وصلتُ إلى المعبر، الطقس حار جداً، ازدحام ملحوظ من السوريين ينتظرون موافقة شرطة الحدود التركيّة على فتح باب العبور، دخلنا مكاناً لأخذ بصماتنا، وصوّرونا كأنّنا مجرمو حرب، صورة أماميّة وصورتان على الجانبين مع حمل رقم خاص إضافة لبصمة "عشاريّة".

وأخيراً فُتح الباب كي أدخل سوريا بعد فراق دام سبعة أشهر، ازدحام كبير والغبار منتشر في كلّ مكان، والحرارة أكلت من أجسادنا ولكن كنت أقارن كلّ المصاعب بهدفي الذي جئت من أجله بطريقة محاكاة الذات.

بعد نصف ساعة من الانتظار صاح العسكري التركي باسمي، هممت بالاتجاه إليه ليسمح لي بالدخول إلى سوريا، بعد جهد صرتُ في منطقة الدرباسيّة حيث يزدحم الشارع القريب من الحدود بسيّارات النقل،

فخرجنا أنا وبعض الشباب -ممّن تعرّفتُ عليهم بالطريق- لنسلك الطريق المؤدّي للحسكة.
بعد وقت قصير وصلت المدينة التي فارقتها مدّة سنتين، لم يتغيّر فيها شيء فالحرارة هي ذاتها والأماكن نفسها، لكن الحواجز العسكريّة ازدادت بقلب المدينة وعلى أطرافها، فكنتُ كلما أمرّ من حاجز ويوقفني أقول في نفسي "لو تعرف ما طبيعة عملي لكنت أوقفتني، وأجبرتني على الخروج في اليوم التالي عبر قناة سوريا الفضائية التابعة للنظام، لأدلي باعترافات من صنعكم، على أنّني أحمل صفة إرهابي أو قائد مجموعة إرهابيّة كما حصل مع الكثير من زملاء العمل في مجال الصحافة".
الحواجز رعبٌ متحرّك، يخافها مثلي أيّ مواطن ولو بمبادئه التي لا يفصح عنها معارض للنظام، خاصّة تلك التابعة للدفاع الوطني أو ما يعرف في مدينة الحسكة بـ"المقنّعين".
لم أذهب إلى أصدقائي القدامى كي أقيم عندهم ريثما أقدّم مادتي الأخيرة، والسبب خوف كبير من إمكانيّة تغيّر مواقفهم السياسيّة وهذا الأمر قد يودي بحياتي خاصّة أنّ معظمهم يعرفون طبيعة عملي، لذا اتجهت نحو الفنادق وبقيت أبحث إلى أن وجدت فندقاً يُقال إنّ خدمته ثلاث نجوم لكن الواقع مختلف!
عند دخولي الفندق سجّل موظّف الاستقبال اسمي كما هو على البطاقة الشخصيّة، ما أثار قلقي أنّ سجل الوافدين إلى الفندق سيؤخذ إلى فرع الأمن السياسي.
مضيت إلى الغرفة التي حجزها لي الموظّف، كانت أشبه بسجن فالكهرباء والماء لا يتوفّران منذ يومين، لذا يقتصر الفندق على وضع عبوتين من الماء

في الحمام يتّم تعبئتهما كلّ يوم، لذا نزلت لشراء الشمع -المستهلك بشكل كبير في المدينة- بسبب انقطاع الكهرباء المتكرر.
في الساعة التاسعة إلّا ربع ليلاً، يُقرع الباب بعنف، للحظة خطر في بالي أنّ فرع الأمن السياسي اكتشف أمري وجاء لاعتقالي، أفكّر في الهروب عبر النوافذ لكن الغرفة في الطابق الثالث ولا يوجد مجال للهروب، بقيت نحو خمس دقائق وأنا أمعن في الباب وأتساءل من خلفه وماذا يريد؟!
في لحظة من الشرود رافقها بعض الشجاعة قرّرت التقدّم باتجاهه، مدّدت يدي كي أفتحه وأنا أفكّر بالعواقب المحتملة التي قد تنتظرني، فالمعتقل السياسي لدى الحكومة يواجه أشدّ أنواع التعذيب الجسدي والنفسي.
وأنا أفتح الباب وإذ بصوت من خلفه يقول: هذا أنا، صديقك، افتح الباب.
سألته: من أنت وهل تعرفني؟
أجاب: نعم أنا زميلك بالجامعة "آزاد" سمعتُ أنّك هنا من أحد الأصدقاء.
فتحت له الباب وتقابلنا بسلام حار، حيث مضى وقتٌ طويل لم أره فيه.
تناولت مع صديقي الأخبار المتعلّقة بما حلّ بالمدينة، وحال الحراك الثوري وكيف يتعامل عناصر اللجان الشعبيّة التابعين للحكومة معه، وسبب الازدحام الشديد في الجامعة.. الخ.
بعد نحو ساعتين ودّعته ومضيت أتابع دراستي، ففي اليوم التالي عليّ الذهاب إلى الجامعة كي أقدّم آخر مادّة لدي.
في الصباح الباكر استيقظت وحالي يُرثى لها؛ فلا يوجد ماء خاص بالحمام، والصراصير تنتشر فيه إضافة لرائحة نتنة لم أعرف مصدرها وكأنّ الغرفة لم يسكنها أحد منذ وقت طويل.
وصلت للجامعة والتقيت بالكثير من الأصدقاء -بعضهم قُتلوا بوقت لاحق-

واتجهت لقاعة التقديم للامتحان، جاء أحد الموظفين بالأسئلة ووزّعها على الجميع، كان هناك أكثر من طالب يتوقّف تخرّجه على ذات المادّة الدراسيّة.
بعد ساعتين قدّمت المادّة، ودّعت الأصدقاء ومضيت باتجاه الكراج الرئيسي كي أعود ولكن ليس من ذات الطريق!
ذهبت إلى مكتب لحجز تذكرة وإذ بالموظف الموجود بالمكتب يقول لي: هناك حافلة ستخرج بعد ربع ساعة.
سجّلت بها على الفور منتظراً بفارغ الصبر أن تنتهي ربع الساعة وأخرج من مناطق سيطرة النظام، توافد المسافرون واكتمل العدد ليمضي بنا السائق غرباً نحو مناطق سيطرة تنظيم الدولة، فليس هناك سوى هذا الطريق للعودة إلى تركيا!
صعدنا للحافلة وجلسنا؛ النساء في الخلف والرجال بالمقاعد الأمامية تجهيزاً للمرور بحواجز تنظيم الدولة المنتشرة من ريف الحسكة إلى ريف حلب، ومضينا نحو المجهول فلا نعرف أين تتمركز هذه الحواجز.
بعد وقت دام نحو ساعة أوقفنا أوّل حاجز، كان يشرف عليه مهاجر من السعودية أتى إلى سوريا لينضمّ للتنظيم حسبما قال، بعد رؤية بطاقاتنا الشخصيّة أعطانا محاضرة بشأن القنوات المضللة، العلمانية، المشوّهة لصورة الإسلام، المعادية لهم، ونعتها بالخوارج والمرتدين والصحوات... الخ.
بعد محاضرة دامت ربع ساعة سمح لنا بالعبور باتجاه الرقة؛ الأمر الذي زاد من قلقي وخوفي فاجتياز الرقة أمرٌ ليس بالسهل خاصّة أنّ المدينة أصبحت مركزاً رئيسياً للتنظيم في سوريا.
قبل الوصول إلى المدينة بنحو 30 كم دار حديث بين مسافرَين اثنين

يجلسان أمامي حول طلاب الجامعات.
يقول الأول مخاطباً من بجانبه: لقد اعتقل التنظيم ابن عمّي.
الثاني: لماذا اعتقلوه ما هي تهمته؟
الأوّل: هو طالب جامعي في كلية الحقوق والقوانين الوضعيّة يكرهها المتشـدّدون.
الثاني: بماذا حاكموه، هل فرضوا عليه الخضوع لدورة شرعيّة كما يفعلون دائماً؟
الأوّل: لا على العكس، ناقشهم ببعض الأمور القانونيّة ومن حدّة النقاش حوّلوه إلى القصاص ولا ندري ما هو حكمه الآن.
الثاني: هؤلاء لا يعرفون بالدين ولا بأموره.
كنتُ أسمع النقاش محاولاً ألّا ألفت النظر؛ فأنا طالب في كلية الحقوق ومكتوبٌ على دفتر خدمة العلم أنّني أدرس في السنة الرابعة من كلية الحقوق.
سألت أحد المسافرين الجالسين قربي: كم بقي من الوقت لنصل الرقة؟
أجاب: بقي ربع ساعة!
اتجهت مسرعاً نحو السائق وسألته: هل يعتقل الحاجز العسكري التابع لتنظيم الدولة عند مدخل الرقة الشبّان الجامعيّين؟
أجاب: لا يعتقلون سوى طالب الحقوق وطالب الشريعة.
قلت له على الفور: ماذا أفعل، أنا طالب حقوق لكن لا أدري بذلك!
أجابني بغيظ: لمَ لم تقل ذلك قبل الانطلاق من الحسكة، لو كنتَ عسكرياً في جيش النظام لكان الأمر أسهل!
انتابني الخوف مجدّداً واصفرّ وجهي، لا أعرف ما أفعل في وقت انحصر

بعشر دقائق، عليّ أن أقرر ما سأفعل وبسرعة.
سألته مرّة أخرى: أريد النزول بمكان قبل الوصول للحاجز.
أوقف السائق الحافلة وقال لي: انزل هنا ومن ثمّ خذ سيّارة باتجاه المدينة، فالسيّارات الصغيرة لن يوقفها الحاجز.
نزلت وأخذت أمتعتي لأرى نفسي عند رصيف شارع لا أعرف ما أفعل، والخطر يبعد عنّي كيلومترين فقط، بقيت نصف ساعة وأنا "أؤشّر" للسيّارات المارّة علّ أحدهم يقف ويقلّني معه.
بالفعل توقّفت سيّارة تجاريّة ونظر إليّ السائق قائلاً لي: اركب يا شيخ!
عندما سمعت الكلمة قلت في نفسي: قُضي عليّ! فهذه الكلمة يردّدها عناصر التنظيم فقط، لكن من أجل عدم الارتباك حاولت ضبط نفسي والتركيز أكثر لأختلق القصص الكاذبة بغية المرور بشكل طبيعي والدخول للرقة.
ركبت معه وسألني: من وين أنت يا شيخ؟
أجبته: من ريف حلب.
سألني مرّة أخرى: ماذا تفعل هنا؟
أجبته: واللّه جئت مع ابن عمّي كي نشتري الوقود الخام من سوق في أوّل المدينة "مع أن شكلي لا يوحي بهذا العمل"
قال مرّة أخرى: يا شيخ كيف تشوف الدولة الإسلاميّة وخدماتها للمسلمين؟
أجبته: الدولة الإسلامية ما في منها يا شيخ، على الأقل حفظت حقوق المسلمين وأقامت العدل وردّت الظلم وعاقبت المجرمين ونشرت خدماتها في المنطقة.
شعر بفخر كبير رافق ذلك ابتسامة ارتسمت على جبينه لتزيد مساحة

ذقنه الكثيفة الطويلة.
بعد سكوت دام دقائق سألته: من وين أنت يا شيخ؟
فاجأني بالجواب: أنا من تونس يا شيخ وجئت وبايعت الدولة الإسلاميّة للجهاد في سبيل الله ونيل الشهادة!
عدتُ للسكوت وأنا أفكّر بالذي حلّ بي، أنا أرافق مهاجراً تونسياً وأمضي باتجاه حاجز تابع لهم!
وصلنا للحاجز وتوقّفنا عنده، فألقى التونسي السلام على المتواجدين.
سأله أحدهم: من هذا الذي معك؟
أجاب التونسي: أخٌ لي تعرّفت عليه في الطريق وهو تاجر وقود من ريف حلب.
مرّت الخدعة على مسؤولي الحاجز ودخلنا الرقة "عاصمة الدولة الإسلامية"، وقتها شعرتُ أنّ حِملاً كبيراً أُزيح من على كتفي.
أوصلني التونسي لمركز المدينة قرب السوق الشعبي واتجهت على الفور إلى الكراج الغربي كي أستقلّ سيارة باتجاه ريف حلب.
مررتُ بعدّة حواجز تابعة لهم لكن كانت آمنة بحكم أنّني مسافر ضمن مناطقهم، وصلت لريف حلب وعلى الفور أكملت نحو الشريط الحدودي كي أدخل عن طريق التهريب.
من ريف حلب واصلت رحلتي إلى ريف إدلب لأقطع الحدود نحو تركيا عن طريق عبور نهر العاصي، بعد ساعتين وصلت للمنطقة ومن بين زحام العابرين تمكّنت من الوصول للضفّة الأخرى لأعود إلى تركيا بعد يوم حافل بالمغامرة والخطورة.
معظم من اعتقل من السوريين أمسكت بهم أجهزة المخابرات السورية أو

تنظيم الدولة الإسلامية عند الحواجز العسكريّة، هذا ما يثير ليس خوفي فقط، بل الخوف عند كل مواطن سوري يمرّ بحاجز عسكري.
تلك قصّتي.. نجوت بأعجوبة.. لن أكرّر هذه التجربة مرّة أخرى..

دينا سالم

في عيون عمر.. قصة ثورة

نظرات التحدي والكبرياء والحزن في عيني الطفل البائع عمر، ورفضه المساعدة، أعادت لي شيئاً من التفاؤل والأمل بأن السوريين لم يفقدوا كل شيء في دوامة العنف والحرب المجنونة التي نعيشها.

عمر يبيع البسكويت في دمشق التي تحولت من مدينة الياسمين، وقاسيون وبردى اللذَين تغنى الشعراء بهما، إلى مدينة مغتصبة تعيش قهراً وذلاً، لم تشهدهما عبر تاريخها، حيث باتت أشبه بثكنة عسكرية مقطعة الأوصال بحواجز النظام ولجان التشبيح، الذي لا يبعد فيها الواحد عن الآخر سوى بضعة أمتار، تمنع حتى التنفس عن أهالي المدينة والنازحين إليها، وأصبحت مدينة للقلق والتناقضات، حيث تشاهد فيها الأثرياء يمارسون حياتهم وبذخهم، والفقراء

يفتقدون لأدنى مقومات الحياة.

رائحة الياسمين التي كانت تفوح في أرجاء دمشق، غلب عليها الآن رائحة البارود والدخان الناجم عن قصف واحتراق الريف المجاور، وسقوط الصواريخ والقذائف العشوائي على أحيائها، استبدلت رائحتها العطرة، برائحة الدم التي تراها أمام عينيك في وجوه الناس وملامحهم، وثياب النساء السوداء التي تطغى على باقي الألوان.

دمشق "أم الفقير" الاسم الذي كان يطلق عليها سابقاً، لأنها كانت الحضن الدافئ للغني والفقير، والملجأ الآمن لكل من هُجّر من بلده، تحولت حدائقها القليلة وأرصفتها إلى سكن للنازحين من بيوتهم من جميع المناطق، وباتت تصرخ من تجار الدماء الذين يتاجرون بقوت الشعب وأمنه، يهرب فيها الأب من عيون ولده لأنه لايستطيع تأمين أدنى متطلباته، والناس فقدت ملامحها وثقتها بنهاية قريبة لهذه المأساة التي يعيشونها، وأنا منهم طبعاً، نظراً للتشظي الذي أصاب السوريين من بداية الثورة، وموقف المجتمع الدولي المتخاذل تجاه الدماء السورية، وصمّت الدول التي صمّت أذاننا بحقوق الانسان وغيرها من الادعاءات، التي كشفت الثورة السورية زيفها .

وحده عمر الطفل البالغ عشر سنوات -الذي وجد نفسه فجأة معيلاً لعائلته المؤلفة من والدته وخمسة من أشقائه (صبيان وثلاث فتيات) لايتجاوز أكبرهم عمر الثماني سنوات، بعد استشهاد والده في الغوطة الشرقية مع عدد من الثوار جراء القصف الوحشي لطيران النظام- أعاد لي توازني وتفاؤلي وجعلني أفكر بطريقة مختلفة حقاً، عندما التقيته في الشارع في منطقة الجبة القريبة من الجسر الأبيض والصالحية -أشهر أحياء دمشق وأقدمها- عرض علي شراء البسكويت الذي يحمله في حقيبة

بلاستيكية لهذا الغرض...
قلت له: لا أريد البسكويت وأعطيته مبلغاً من المال، إلا أنه أعاد المال وحدق بوجهي بعيون تختزن حزن العالم أجمع وعنفوان الرجولة -كمفهوم وليس كصفة- قائلاً: أنا أبيع وأعمل لأعيل عائلتي ولا أشحذ منك، أعطهم لمن هو أحق مني. طلبت منه أن أشتري العلبة كاملة وأرسلها هدية لأشقائه، رفض ثانية وقال: أنا مسؤول عن إخوتي. كل سنوات عمري لم تشفع لي، أحسست أمامه بالعجز، أحسست بأنه صفعني لإخراجي من حالة اليأس التي بدأت تتسرب إلى نفسي كما كل الناس، شعرت بأنني أمام رجل لا طفل يجب أن يكون بين ألعابه، أو في مدرسته ويلعب مع رفاقه، الطفل الرجل الذي يعتمد على جهده وعمله، الذي لا يباع ويشترى، كما يحصل في الجبهات لدينا كل يوم وفقاً لمصالح الدول التي تمولها.
وأعترف أنني بصعوبة استطعت أن أفهم قليلاً عن أوضاع عائلته، لمعت عيناه بالفخر وهو يصف والده الشهيد بالبطل، وأنه حمل الأمانة من بعده، لإعالة العائلة، ومواصلة الطريق، بجمل قصيرة وموجزة استطاع تلخيص مسيرة ثورة، ثورة دفع السوريون لأجلها ثمنها باهظاً جداً من أرواحهم وممتلكاتهم.
تركته والدموع تنهمر من عيني في الشارع، واختلطت لدي مشاعر الحزن والألم والفخر وأقول لنفسي "في أمل، إي في أمل"، هذه هي سوريا التي نريدها، عمر وأمثاله من الأطفال والشباب سيبنون سوريا، بتعبهم بجهودهم، دون تمويل من أحد يتحكم في قراراتهم.
عمرالطفل الذي كبر دون أن يدري كما كل أطفال سوريا، كان يقطن في الغوطة الشرقية -التي كانت تغذي كل مناطق سوريا بالخضراوات

والمحاصيل المختلفة، والصناعات الغذائية- يعيش حياة طبيعية في بيت مكون من طبقتين ينتمي إلى عائلة ميسورة نوعاً ما، الأب مزارع والأم سيدة منزل تملأ البيت حناناً، ترعى شؤون المنزل والأطفال، ثلاثة منهم كانوا في المدرسة بالإضافة إلى عمر، إلى أن بدأت الثورة وشهدت الغوطة تظاهرات مناهضة للنظام، وتعرضت للقصف والتدمير الوحشي اليومي، وترك الأب عمله لينضم إلى صفوف الجيش الحر للدفاع عن بيته وأهله، وبعد استشهاد الوالد وتدمير منزل العائلة اضطرت عائلة عمر للنزوح إلى المدينة، وانتقلت مسؤولية رعاية الأسرة من الأب إلى أكبر الأبناء عمر، وفقاً للأعراف والتقاليد المتبعة في المجتمعات العربية.

هو ليس الطفل الوحيد الذي ترك التعليم ليعيل عائلته بعد فقدان المعيل نتيجة القصف أو الاعتقال أو الاختطاف، هو واحد من عشرات الآلاف من الأطفال، الذين يشبهونه بالظرف والمسببات، نراهم يعملون بمهن مختلفة، وأغلبها شاقة، لا تتناسب مع أعمارهم الصغيرة، ولكن ما هزني بموقف (عمر) وقفته الشامخة كشموخ قاسيون قبل أن تحتله قوات نظام الأسد، وعيونه الحزينة الواثقة المليئة بالإصرار والكرامة، في عيونه يختزن حكايات وقصص عن بطولات ثوار الغوطة، والحصار، والجوع الممنهج الذي مارسه النظام عليها، وقصص من المآسي يلزمها آلاف المجلدات لتدوينها، ورائحة الدم التي حملها معه إلى شارع الجبة الذي يقطنه أناس ميسورو الحال والذي يصل إليه يومياً سيراً على الأقدام مسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات من مكان سكنه في غرفة صغيرة قرب حي الزاهرة القديمة الذي يقطنه أناس غالبيتهم من الفقراء، أو يعيشون تحت خط الفقر، ويعج بالنازحين من باقي المحافظات ومن المناطق القريبة عليه.

في الجهة المقابلة من شارع الجبة حيث يقف عمر، تقف فتاتان شقراوتان صغيرتان آية في الجمال، كجمال سوريا، وياسمين دمشق، كانتا في البداية تتسولان من المارة ومن ركاب السيارات، يرقبهم من بعيد رجل طاعن في السن، ويقوم هو نفسه بالتسول بين الحين والآخر، وأصبح الثلاثة -لسنوات أربع خلت- من معالم الطريق، وتثير الطفلتان حركات مميزة حيث تمارسان طفولتهما باللعب والركض أثناء التسول. تغير ما حصل للفتاتين، بدأتا ببيع قطع صغيرة من البسكويت والعلكة، ولأنهما ترفضان الحديث مع أحد، لا أعلم إن كانت عملية التحول هذه طريقة جديدة للتسول، أم أنهما قررتا كما الطفل الرجل عمر أن تكسبا الرزق عن طريق العمل.

ظاهرة التسول كانت منتشرة بشوارع المدينة قبل الثورة، إلا أنها تفاقمت بعدها، وبعد نزوح الملايين من المحافظات التي تدور فيها رحى الحرب كـ "حمص، وحلب، وإدلب، والرقة، والقامشلي، والحسكة، ودير الزور، ودرعا، والقنيطرة، وريف دمشق" في ظل غياب شبه تام للدولة عن إعانة النازحين الذين فروا من مناطقهم بالثياب التي يرتدونها تاركين وراءهم بيوتاً دمرت، وذكريات بحجم أعمارهم، آملين أنها ستنتظرهم لحين عودتهم.

تسوّل الأطفال بات ظاهرة واضحة للعيان، اختلط فيها الأمر بين المحتاجين فعلاً، وبين امتهانها لدى الكثيرين، ممن وجدوا في هذه الظروف تشغيل أطفالهم فرصة لكسب الرزق، والبعض الآخر أصبح رهينة لدى مافيات الإتجار بالأطفال وتشغيلهم بالتسول أو بيع المهربات أو الممنوعات مثل المخدرات والدخان وغيرها، ظاهرة تفقأ عين الناشطين في المجتمع المدني. عمل الأطفال في أعمال شاقة أو في التسول يفرض واقعاً مأساوياً لمستقبل

أطفالنـا الـذي بـات أكثـر مـن 40٪ منهـم في الداخـل، خـارج نطاق التعليم، وإذا لم نسـارع كمجتمـع مدني لإنقاذهم، من خلال توحيد جهود مئات الجمعيات والهيئـات والمبـادرات والمـراكز التـي تأسسـت بعـد قيـام الثـورة ومأسسـتها لتقاسـم المهـام، ورعايـة الأطفـال، وإعادتهـم إلـى المـدارس وتأميـن عائلاتهـم، والعمـل علـى وقـف تجنيـد الأطفـال؛ إن مـن قبـل النظـام أو المعارضـة المسـلحة أو الكتائـب المتشـددة والإرهابيـة الدخيلـة علـى المجتمـع السـوري، سـنجد أنفسـنا مسـتقبلاً بعـد سـقوط النظـام -الـذي يتحمـل مسـؤولية كل مـا يحـدث مـن مـوت ودمـار واسـتقدام الإرهابييـن لتبريـر جرائمـه والتخويـف بصـورة بديـل مشـوهة لنظامـه- أمـام جيـل مـن المتشـددين والإرهابييـن والانتحارييـن، يهـدد مسـتقبل سـوريا.

كثيـر مـن الأطفـال يعلموننـا نحـن الكبـار أن الحيـاة تحدّ، وعمـل، وجهـود يجـب أن تتوحـد، والرابـح هـو مـن يقـاوم كل العراقيـل والمآسـي للوصـول إلـى أهدافـه، يلقنوننـا درسـاً أن نجـاح الثـورة يحتـاج إلـى إرادة، وإصرارعلـى الاسـتمرار، يحتـاج إلـى ولاء للعائلـة والوطـن.

وأنتـم تقـرأون هـذه القصـة هـل فكرتـم بحلـول يمكـن أن تنقـذ أطفـال سـوريا مـن إجـرام نظـام يسـتهدفهم في المـدارس والأسـواق والمخابـز والحدائـق، وكتائـب دخيلـة تسـتهدفهم بالقصـف والتجنيـد، وتحالـف دولـي يسـتهدفهم بـدلاً مـن اسـتهداف داعـش.

لا أعـرف نهايـة قصتـي "رغـم ثقتـي وأملـي بـأن نهايتهـا سـتكون كمـا يريدهـا الشـعب السـوري" طالمـا بيننـا الطفـل عمـر وأمثالـه، والكثيـر الكثيـر مـن الشـباب السـلميين في الداخـل والخـارج الغيوريـن علـى الوطـن، والمتسـلحين بفكـرة الانتقـال بسـوريا إلـى دولـة مدنيـة، لأنهـا مرتبطـة بثـورة شـعب أراد

الحرية والعدالة ودولة مواطنة، وواجه الموت من نظام دكتاتوري، يدعمه المجتمع الدولي، لإجهاض ثورة إن نجحت ستغير وجه المنطقة، وستكون منارة لباقي شعوبها، لإسقاط دكتاتورياتهم، واستعادة حريتهم، وهذا يهدد مصالح دول كثيرة، وخاصة الدول العظمى، التي تضع يدها على مقدرات المنطقة.

قصتي مفتوحة مادامت الثورة مستمرة، وسنحتفل بنهايتها معاً.

جيهان الديراني

بعد الموت.. ولدت من جديد

"بعد7 سنوات جاءت لتعوضني في غربتي عن كل ما خسرته في سوريا"

"رغم الدمار والألم الذي نعيشه ولكن ثمة أمل يعيدنا للحياة، ورحمة الله ترافقنا أينما كنا"

28 تشرين الثاني 2012 خرجت من سوريا مع زوجي متجهين إلى لبنان على أمل العودة بعد أسبوع وذلك بعد الحصار الشديد والقصف المتواصل على مدينتي، ودعت أهلي ودموع أمي وأبي تملأ أعينهم، كانا يشعران بأن هذا الوداع سيكون طويلاً وربما الأخير فكل من خرج لا يعلم متى يعود لوطنه، تركت خلفي ذكرياتي وطفولتي، أصدقائي، منزلي وطني، وكل ما هو جميل في سوريا وقلبي يعتصر حزناً راجية من الله أن أعبر الحواجز دون أي مشاكل، حتى الآن أذكر كيف كنت كلما مررت بأحد حواجز النظام أبدا بقراءة القرآن والأدعية

إلى أن نعبر بسلام، ويعيد العناصر هوياتنا الشخصية، كان مجرد وجود اسم مدينتي على الهوية سبباً كافياً للاعتقال، بقيت على هذه الحالة مدة ساعتين إلى أن وصلت إلى الحدود اللبنانية ودخلنا الطرف الآخر للحدود.
وصلت إلى لبنان ولكن هناك أشياء غريبة تحدث لي لأول مرة، كنت متعبة جداً أشعر بدوار شديد، في البداية قلت لنفسي ربما سبب ذلك هو القلق والاضطراب الذي عشته خلال السفر، ولكن في اليوم الثاني أصر زوجي على الذهاب لإحدى العيادات كي نطمئن أكثر. ذهبت إلى طبيبة سورية موجودة في لبنان، بدأت أشرح لها الأعراض وبعد الفحص قالت لي مبارك! في البداية لم أصدق ما سمعته، طلبت منها أن تعيد ما قالت لأتأكد أكثر، فهل يعقل أن يكون سبب تلك الأعراض هو جنين في أحشائي؟ هل يعقل أن أكون حاملاً بعد 7 سنوات من الانتظار بعدما نسيت الأمر تماماً؟ "نعم إنتي حامل" هذا ما أكدته الدكتورة التي أعادتني لوعيي والدموع تملأ عيني.
أردت العودة مسرعة لأنقل الخبر لزوجي، وكنت أفكر كيف سيكون رد فعله؛ هل سيصدق؟ كيف سأخبره؟ ألمح له؟ أم أخبره بشكل معلن؟ كيف ستكون المفاجأة؟ لن أنسى تلك اللحظة عند سماعه الخبر، ابتسامته اختصرت كل الكلام، لمعة عينيه كانت كافية لتنقل لي ما يجول في داخله.
بعد خروجي من سوريا كنت قد فقدت الأمل بأن هناك شيئاً جميلاً سيحدث بعد الاعتقالات والمجازر التي عشناها، ولكن ذلك الخبر كان كافياً لينعش الأمل بداخلي من جديد، من هنا بدأت أستعد وزوجي كيف سننقل الخبر للعائلة... أردنا أن نشاركهم تلك الفرحة، إلا أن هاتفاً من أحد أصدقائنا داخل سوريا قلب كل شيء، "هناك مفقودون جراء إلقاء

مواد كيماوية داخل المدينة ومن بينهم شقيق زوجي وعمه وصديقه"، وما هي إلا ساعات حتى بدأت صور الضحايا تتوالى على الشاشات وبعدها أسماء الشهداء، كثيرون منهم أصدقاء ومعارف، كانت هذه الأخبار كافية لتعيدنا للواقع الذي نعيشه ويعيشه السوريون، فمع كل مولود هناك شهيد. مع سوء الأوضاع في سوريا وكثرة الاعتقالات قررنا أن نبقى في لبنان مدة أطول إلى أن يتم رفع الحصارعن المدينة، بعد ثلاثة أشهر قررت زيارة أهلي في سوريا وكانت المرة الأولى التي أعود وأراهم فيها بعد خروجي إلى لبنان، لكن في هذه المرة كان الخوف يسيطرعليّ، للمرة الأولى أشعر بالرعب من أصوات القصف وصوت الطائرات التي تحوم فوق سماء سوريا أيضاً، من المرور عبر الحواجز رغم أنني كنت سابقاً لا أهاب شيئاً، أذكر الآن كيف كنا سابقاً نخرج في المظاهرات وننادي بأعلى صوتنا مطالبين بحريتنا وحرية المعتقلين وحرية المناطق التي يحاصرها النظام، ورغم تعرضنا لإطلاق الرصاص عدة مرات إلا أننا في المظاهرة التي تليها نخرج بقلوب أقوى وصوت أعلى، كنت أقوم بطباعة مناشير وجريدة ثورية في منزلي وأقوم بتجهيزها، في المداهمات أقوم مسرعة بإخفاء الفلاشات والموبايلات بين ملابسي، والأوراق تحت السجاد، وأضع منشر الغسيل فوق الطابعة. بالرغم من سماع صوت دقات قلبي إلا أنني كنت أشعر بأني قوية، كنت أمر مع زوجي عبر الحواجز وأنا أخفي المناشير تحت مقعد السيارة الذي أجلس عليه، كل تلك الأحداث تغيرت بعد خبر الحمل، دائماً ما عزيت نفسي بأن هناك روحاً في أحشائي أصبحت مسؤولة عنها ولم أعد كما كنت سابقاً، ربما كان هذا الشعور يخفف عني ويغتال شيئاً من إحساسي بالذنب وحقيقة أني لم أعد قوية.

خلال فترة حملي زرت سوريا ثلاث مرات؛ كنت في كل مرة يزداد شعوري بالخوف ولكن كانت الزيارة الأخيرة هي الأصعب والأكثر خوفا، فبعد تفكير دام 6 أشهر، وأخذ ورد بيني وبين زوجي وعائلتي وعائلته، وتدخّل الأصدقاء والأقارب بخصوص مكان وإجراءات الولادة سواء كانت قيصرية أم طبيعية، في لبنان أم في سوريا أم في مصر، هذا جعلني دائماً في حالة من التوتر طوال فترة الحمل عدا عن معاناتي مع الأطباء السوريين واللبنانيين، ولكن قرار منع الاعتراف بالأطباء السوريين داخل لبنان وعدم السماح لهم بإجراء أي عمليات للسوريين، كان السبب الأساسي وراء ترددي وزيارتي لأكثر من طبيبة إضافة لتنقلي من بيروت لشتورا لمجدل عنجر، ومع اقتراب موعد ولادتي اضطررت لزيارة طبيبة لبنانية لتسهيل إجراءات الولادة في المشافي اللبنانية رغم التكاليف المرتفعة للولادة والمعاينة حسب الوضع المادي الذي يعيشه السوريون، إلا أن همي الوحيد يتمحور الآن كيف ألد طفلتي بسلام مهما كانت التكلفة، حتى لو اضطررت لأستدين من أحد. حددت موعد الولادة واتفقت مع الدكتورة على كل الإجراءات، بعد عودتي للمنزل بالصدفة اتصل صديق زوجي في لبنان يخبره عن معاناته بتسجيل ابنه المولود منذ عام داخل سوريا والصعوبات التي يواجهها في إدخال الطفل مع أمه إلى سوريا، لعدم وجود أوراق تثبت هويته تعترف بها سوريا.

القرار الصعب:

في ذلك اليوم اتخذت القرار وأخبرت والدتي التي كانت تجهز نفسها للمجيء إلى لبنان بأنني سأنزل إلى سوريا لأضع مولودتي عندهم، كان

القرار صعباً جداً على زوجي، ولكن إصراري وإلحاحي عليه دفعه للموافقة رغم خوفه الشديد علي وعلى ابنته.

17 تموز 2013 عدت إلى سوريا، مررت عبر الحواجز ودقات قلبي ترتفع عند كل حاجز إلى أن وصلت لمكان وجود أهلي في وادي بردى، ذهبت لزيارة طبيبة موجودة في الوادي وبعد الفحص أخبرتني بأن ولادتي أصبحت قريبة جداً، ونظراً لعدم وجود مشافي في المنطقة وإمكانية احتياجي لعملية قيصرية للولادة، تم تحديد موعد 21 تموز في أحد المشافي في وسط دمشق.

"اليوم المنتظر" استيقظت صباح 21 تموز على اتصال من زوجي ودعواته ترافقني بسلامتي وسلامة مولودتنا، وكان صوته يحمل لي ألمه الشديد لعدم قدرته على أن يكون معي في اللحظة التي كنا ننتظرها طويلاً، ولكن كنا نعزي أنفسنا بأنها ساعات قليلة وسيكون شيئاً منه معي، بقربي، سيعوضني عن الفراق حتى نلتقي مرة ثانية.

خرجنا صباحاً قبل الموعد بساعتين لنستطيع الوصول باكراً، فأمامنا ثماني نقاط من حواجز النظام عبر الوادي ووسط دمشق ولا نعلم كيف سيكون الوضع، في هذه اللحظات كنت أردد كل ما حفظته من أدعية وآيات قرآنية، وأرجو من الله أن يمر هذا اليوم على خير.

بعد وصولي للمشفى بـ 4 ساعات صحوت على صوت طفلتي، صوت صراخها يعيد الحياة لي، لحظات لا يمكن ان أنساها أبداً، فبعد عدة مراحل مررت بها من انتظار وخوف وقلق، ها قد عادت المرحلة الأكثر صعوبة لأبدأ من جديد، مع صرخة طفلتي الأولى أشعر بأني ولدتُ من جديد و21 تموز هو مولدي وابنتي معاً.

نورا منصور

جواز سفر

طفلتي نغم، ثمرة حبي لدياب، خرجت للعالم في الثامن عشر من أيلول العام 2014، من الصعب التعامل مع طفلة صغيرة لمن ليس لديه خبرة في هذا المجال، الأطفال الصغار لا يكفّون عن البكاء، يطلبون الطعام بكثرة كما أنهم غير قادرين على القيام بأي شيء، العناية بنغم كانت أمراً بغاية الصعوبة خاصة وأني في الغربة بعيدة عن أهلي وأهل زوجي، كما أن والدتي توفيت قبل ولادة نغم بعامين، كم تمنيت لو كانت والدتي على قيد الحياة لترى حفيدتها الأولى التي طالما انتظرتها، ولتقف إلى جانبي في هذا الوقت الصعب لأنها وحدها من أثق به.

ستتم نغم عامها الأول بعد قرابة الشهر، منذ عدة أيام فقط حصلت على جواز سفر، قبله كانت محرومة من أي أوراق تثبت هويتها، اليوم وبعد قرابة العام بات لديها جواز سفر وأوراق ثبوتية تمكنها من إتمام حياتها كأي مواطن سوري آخر، تستطيع اليوم طفلتي -ذات الأحد عشر شهراً- النطق ببعض الكلمات كما أنها تحاول المشي، لقد بدأت البحث عن استقلاليتها والاعتماد على نفسها.

كغيرها ممن ولدوا في بلاد الغربة، لم ترَ أياً من أقاربها، لم تتعرف إلى جدها أو جدتها إلا عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي، ربما تظنهم كالرسوم المتحركة التي تتابعها من خلال شاشة الآي باد، دائما تقوم بقلب الهاتف أثناء الحديث مع أحدهم وكأنها تبحث عنهم خلف الشاشة، ربما ستلتقي قريباً بأهلها وستتعرف إليهم من دون حواجز.

يبقى حال ابنتي أفضل من حال غيرها من الأطفال السوريين المقيمين في تركيا، أو من ولد منهم على الأراضي التركية والعربية، فمعظم هؤلاء الأطفال محرومون من الجنسية ومن حقهم في الحصول على أي أوراق ثبوتية، حتى إن بعضهم لا يملك شهادة ميلاد لأن أهلهم لا يملكون المال الكافي للولادة في مستشفى عام أو خاص.

شام صديقة نغم تكبرها بثلاثة أشهر، ولدت في إحدى المشافي التركية من أب فلسطيني وأم سورية، لا يملك أي من والديها جواز سفر، لذلك لم يتمكنا من تسجيلها في تركيا، وبسبب عدم وجود أقارب لهما في سوريا لم يتمكنا من تسجيلها في سوريا أيضاً، أنهت شام عامها الأول في تركيا ولا تحمل أي أوراق ثبوتية سوى شهادة ميلاد.

كما رفضت المدرسة التركية -التي تدرس فيها أختاها- أن تمنحهما

أي شهادات أو أوراق تثبت أنهما أتمتا عامهما الدراسي، مع أنهما من المتفوقات في المدرسة، كانت رغد (12 عاماً) تبكي لأنها حرمت من تسلم شهادتها ولا يمكنها متابعة الدراسة في تركيا.

ترك أهل شام، سوريا وكانت أمها حاملاً بها بعد معاناة طويلة، لم يكف الفلسطينيين نزوحهم الأول عن أرضهم، تتكرر اليوم التغريبة الفلسطينية، في البدء خرج أهل شام من منطقة المليحة في غوطة دمشق متجهين إلى مخيم اليرموك حيث يسكن جدّا شام وأعمامها، لكن آلة القتل وصلت مخيم اليرموك ومع اشتداد الحصار اضطرت السيدة الحامل إلى مغادرة منزلها للمرة الثانية مع أسرتها، متجهين إلى تركيا، قاطعين الطريق براً، كان الطريق شاقاً على السيدة الحامل، وصلوا تركيا وبعدها رزقوا بالطفلة وأسموها شام، استغرب الأتراك الاسم وقالوا بأنهم لا يسمون أبناءهم على أسماء المدن فهذا غير جيد!

سافر اليوم والد شام في البحر، مفضلاً الموت على بقاء أولاده بلا أوراق ثبوتية أو جوازات سفر، مخلفاً وراءه أسرة مكونة من زوجته وبناته الثلاث وابنه الوحيد، يعيش اليوم الخمسة في منزل قطعت عنه الكهرباء لعدم تمكنهم من دفع الفواتير، كما قامت البلدية بهدم جزء من المنزل لأنه مخالف، لا تستطيع الزوجة العمل لأن أطفالها صغار وهي لا تتقن اللغة التركية، ولا يوجد أي مورد مالي. بالرغم من وصول الزوج إلى ألمانيا لكن على العائلة الانتظار بهذه الظروف لمدة تزيد عن عام ليتم لم الشمل.

اتصلت بي الزوجة باكية، قالت لي أعيش وأولادي اليوم في منزل بلا كهرباء، وطلبت مني أن أبحث لها عن سكن ريثما يحصلون على لم الشمل، أو حتى أن أجد لها عملاً، مهما كانت طبيعة هذا العمل، لم أتمكن من

مساعدتها، فأنا مثلها لاجئة والفرق أن لي راتباً شهرياً بالكاد يكفيني وأسرتي.

شعرت بالحزن لحالها، إنها ككثر غيرها لا تجد من يساعدها، ولو وجد زوجها من يخرجه وأسرته بطريقة شرعية، أو لو وجد من يمنح صغيرته أوراقاً ثبوتية، لما خاطر وسافر بالبحر وترك خلفه أسرته من دون مورد مالي، كما أنه لو وجد من يرعاه في تركيا أو يقدم له جواز السفر لما خاض تلك المغامرة.

حتى نحن الكبار لا نجد من يحمينا، فقد قامت الحكومة التركية بوضع قوانين جديدة للجوء حرمتنا من كافة حقوقنا، كما أن البنوك التركية اليوم تفرض قيوداً على السوريين من ناحية تقييد الحوالات البنكية أو حتى عن طريق مكاتب التحويل.

وبسبب هذه الإجراءات الجديدة فقدت حقي في الحصول على أوراق إقامة، وأصبحت إقامتي غير نظامية كما أنني فقدت حقي في استقبال حوالات مصرفية، وبالتالي لا يمكنني اليوم أن أستقبل أي حوالات من خارج تركيا، كما أنني لا أستطيع إرسال أي مبالغ عن طريق البنك أو الحوالات، وهذا يعيق عملي كمديرة تحرير لصحيفة سورية تُطبع خارج سوريا وتوزع داخل سوريا وعلى الأراضي التركية، كما أنني لا أستطيع ترخيص صحيفتي على الأراضي التركية بسبب قانون المطبوعات.

لا يوجد اليوم قانون يحمي السوريين تحت سقف الدولة التركية، ولا يوجد قانون يكفل لهم حق العمل ضمن شروط إنسانية، وينطبق هذا على العاملين في المنظمات الأجنبية العاملة بالشأن السوري، والتي لا تحمل تراخيص ولا تؤمّن للعاملين فيها أذونات عمل وبالتالي لا يملكون تأميناً

اجتماعياً أو صحياً أو أي ضمانات لتقاعدهم. كما أن الدول الأوروبية ليست أحسن حالاً، فعوضاً عن فرض برامج لقبول اللاجئين بشكل شرعي تركت للسوري طريقاً واحداً وهو طريق الموت.

أسعد حنا

لا تسألني عن ديني

قالت لي أختي القادمة حديثاً من سوريا إلى تركيا، بأنها عندما تواجه مصاعب في حياتها ستتذكر قصتي لتقوي نفسها وتتمكن من التغلب نفسياً على المشاكل، وليكون شعارها أنّ أي فرد قادر على مواجهة المجتمع والناس والتغلب على ما يفرضونه عليه إن امتلك الإرادة والرغبة.

أثارت هذه الكلمات النشوة في جسدي حتى اقشعرّ بدني فلم أعتد على سماعها، ولم أكن أعرف أن تأثيري بحياة أختي قد وصل لهذه الدرجة، أختي التي تركتها مع أهلي منذ سنتين بعد أن سافرت من سوريا إلى لبنان لقضاء عمل لمدة أسبوع، لتتحول لاحقاً إلى زواج واستقرار خارج البلد لم يكن بالحسبان، البلد الذي عشت ثلاث سنوات من ثورته التي كان لها التأثير الأكبر بحياتي والتي أوصلتني إلى هذه

اللحظة وأسمعتني الكلمات السابقة التي قالتها أختي.
كانت هذه الكلمات بمناسبة سفر أختي إلى ألمانيا لتبدأ رحلة اختصاصها بعد تخرجها من كلية الطب البشري، وكنت قد تركتها أنا سابقاً بعد سنتها الرابعة لأبدأ حياتي بشكل مفاجئ ودون سابق تخطيط، فقد خرجت من مدينتي حمص التي كانت تُلقب بعاصمة الثورة، الثورة السورية على نظام الأسد، وكأي شاب سوري كنت مندفعاً للمشاركة فيها بكل ما أستطيع، الأمر الذي جعلني أقتحم بوابات العالم الافتراضي لأتعرف على أصدقاء افتراضيين على شبكات التواصل الاجتماعي. وفي يوم من أيام الثورة كان عليّ أن أخرج إلى لبنان لألتقي بعض الأشخاص هناك، ولدي صديقة كانت معتقلة سابقة في سجون النظام وانتقلت للعيش مع عائلتها في بيروت بعد أن أطلق النظام سراحها فأحببت أن أزورها وبالفعل طلبت منها ذلك وقابلته بالترحيب.
أنهيت أعمالي في لبنان وبقي لدي ثلاثة أيام قبل أن أعود إلى سوريا فتذكرت الموعد واتصلت بها لألتقيها في أحد مطاعم منطقة "عاليه" أخذتنا الأحاديث طويلاً، كنت متشوقا لأسمع قصة اعتقالها وكيف كانت تلك الفترة التي عاشتها في المعتقل فبدأت تروي لي وهي تدخن سيكارتها من نوع جيتان.
"لم نتوقع أن يتم تحويلنا إلى فرع الأمن ولا أن نبقى لهذه الفترة، كنا متأكدين أن النظام سيعتقلنا لأنه لا يرغب بالحراك السلمي لكن كنّا نعتقد بأنه سيطلق سراحنا في نفس اليوم أو في اليوم التالي، ولكننا مكثنا هناك قرابة الشهرين في ظروف لا يمكن لأي شخص أن يتحملها، ما أعانني على ذلك وجود أختي واثنتين من صديقاتي معي، فنحن كنا مجموعة

واحدة بالتنسيق والتنفيذ لهذه العملية، قطعنا الأمل بأن نخرج وبتنا ننتظر إحالتنا للمحكمة والتي من الممكن أن تمتد لسنة -كما حدثتنا إحدى الفتيات المعتقلات معنا- إلا أنه وبعد شهرين من الاعتقال اضطر النظام أن يجري صفقة مبادلة مع الجيش الحر فأجبر الأول على إطلاق سراح آلاف المعتقلين والمعتقلات لديه مقابل الحصول على عشرات الإيرانيين الذين تم اعتقالهم من المعارضة السورية أثناء قتالهم إلى جانب جيش النظام، وكنا نحن الأربعة من بين ألوف المعتقلين الذين خرجوا".

كادت جمرة سيكارتها أن تحرق أصابع يدها بعد أن نسيت أن تدخنها أو أن تحركها فاهتزت يدها وضحكت، نفضت رماد السيكارة عن بنطالها الأسود، احتست رشفة من كأس البيرة التي كنا قد طلبناها وتأخرعامل المطعم بإحضارها فلم نهتم بها عندما أتت، نظرت إليها وقلت أكملي، ماذا حصل بعد أن خرجتم؟ فتابعت قائلة:

"خرجنا إلى الشارع لنجد الدنيا مثلجة ولا مجال للوقوف بالبرد، لم نرغب بأن يأتي أهلنا إلى هنا من خوفنا أن يوقفهم رجال الأمن، لكن وجدنا أحد المحامين الذين كان يتواصل معنا باستمرار ليحضننا ويبكي فرحاً بخروجنا كما خروج آلاف المعتقلين، وتهم أغلبهم هي الحراك السلمي ضد نظام الأسد، نظرنا إلى الجانب الآخر من الشارع لنرى رجالاً وشباباً يقفون "متكوكرين" على نفسهم من شدة البرد، فبعضهم كان قد قبع في سجون النظام منذ فصل الصيف دون أن يتمكن أحد من زيارته ليحضر له بدل ثيابه التي يرتديها فلازال بالثياب التي رافقت اعتقاله، وبعضهم يحاول تدفئة نفسه بالركض في مكانه منتظراً أن يأتي أحد أقاربه أو يدفع له أحد ما أجرة السيارة التي ستقله إلى بيته، فلا مال بجيوبه الممزقة،

منظر لن يُمحى من رأسي ما حييت".

أمسكت يدها وقلت لها المهم أنهم خرجوا من خلف القضبان، وقصدت مقاطعتها لأنني كنت قد بدأت أرى الدمعة تغرغر بعيونها، وقلت لها ممازحاً: "كان ضروري تلبسو تياب العرائس وتشاغبوا انتو كمان؟ فضحكنا معاً".

لكني أبديت إعجابي الشديد بما قاموا به، فكنا نعيش في بلد لا يجرؤ فيه الرجال على أن يقفوا بوجه رجال الأمن والمخابرات ويقولوا لهم قفوا أنتم مخطئون، فوقفت هي وثلاث فتيات بنصف سوق مكتظ بالسكان بوسط العاصمة دمشق مرتدين فساتين عرس بيضاء للدلالة على السلام، حاملين لافتات كانوا قد أخفوها حتى وصلوا لهذا المكان، ليرفعوها عاليا مطالبين فيها بوقف القتل والتأكيد على الوحدة الوطنية".

فقالت لي: معك حق، والآن دورك لتخبرني عن حمص.

وهكذا أخذنا الحديث ثلاث ساعات، وحان وقت العودة للبيت مع خالها وأخيها اللذين انضما إلينا بمنتصف الجلسة، وبدأ الوداع بدعوات لاستكمال السهرة على "البلكون" في البيت الذي يسكنونه لنتابع أحاديثنا في ليلة صيفية هادئة، لكن لم يكن هناك فراق رغم أنه حان وقته، فكانت الأحاديث شيقة وكنت أرغب باستمرارها، فليس كل يوم بإمكانك أن تجد الفرصة للقاء فتاة بهذه الشخصية، وهذه القوة، كما أن هناك شيئاً آخر لم أستطع تفسيره، بالطرف الآخر هناك ما كان يدفعني للرحيل لأنني لا أعلم ما هو طبع عائلتها التي ستكون معنا، وهل سيتقبلونني أم أنني سأتلقى النظرات كشخص غير مرغوب فيه؟ تابعنا إلى المنزل وتجاهلت كل ما يمكن أن يمنعني عن ذلك، وصلنا..

بدأت السهرة وبدأنا الأحاديث، ليخرج إخوتها وينضموا إلينا، كانت قدمي تلامس قدمها وهو ما أوصل تياراً إلى جسدي أغرقني بما كنت قد نسيته منذ زمن طويل، ولم أكن أتوقع أنه سيعود لي، عيوننا تكلمت طويلاً دون أن نتحدث، كما تحدثنا مع بعض حين فرغت عيوننا من الحديث، فتاة دمشقية قوية الشخصية تحب الحياة ما استطاعت إليها سبيلا، هذه كانت اللوحة التي رسمتها لها في رأسي، فرغت كؤوسنا وانتهى ضحكنا مع بزوغ الفجر، الفجر الذي كان توقيته بعد القبلة التي طبعتها على خدها بعشر دقائق وقبل الوداع الذي بقي معلقاً حتى موعد آخر بعشر دقائق، كانت هذه العشر دقائق هي التي وقفنا فيها على الباب لنودع بعضنا متفقين أن نلتقي في اليوم التالي.

كانت أياماً جميلة قضيناها في بيروت متنقلين من مكان لمكان وتعرفنا خلالها على بعضنا أكثر، كما سببت هذه اللقاءات تأجيل عودتي إلى سوريا لأسبوع آخر.

في لحظة كنا نمشي على شاطئ البحر في بيروت أمسكت بيدها قائلاً "تتزوجيني؟" فنظرت لي نظرات نصفها ضحك ونصفها استغراب، مع انكماش بالأصابع واحمرار بالخدود وقالت لي "إيه بالحال، امشي لعند السمكات يزوجونا"، سحبتها لأمامي وقلت لها: أنا جاد ولا أمزح، فأجابتني بصوت شبه مرتفع، كيف ذلك ونحن من دينين مختلفين؟ أنت من عائلة مسيحية وأنا من عائلة درزية..

أنا مدركة أنها ليست مشكلة بالنسبة لنا، لكن كيف سنشرح ذلك للمجتمع؟ وأنت مدرك مدى تزمّت مجتمعنا وخاصة المجتمع الدرزي الذي لا يمكن له أن يتقبل هكذا مواضيع ولا يتساهل معهم بالعقاب.

صمتت لدقائق وعدنا للمشي بخطوات أبطأ وبدأ الماء يتسلل ليكسر جفاف قدمينا كما بدأ اليأس يتسلل ليجفف رطوبة أفكارنا وحماسنا، بدأت أتحدث معها دون النظر إلى وجهها فقلت: إننا كلانا من أبناء هذه الثورة التي خرجنا بها لنطالب بالحرية والدولة المدنية فكيف لنا ألا نطبق على الأرض ما خرجنا لأجله، إذا توقفنا عند هذا العائق فسنكون منافقين بحق أنفسنا وبحق الثورة، لتوافقني هي على نفس الأفكار وتضيف أيضاً أنها لن تتوقف عند ذلك وأنها موافقة أن نستمر في ذلك لنتحمل كل المصاعب التي يمكن أن تواجهنا، وبدأنا بالتخطيط لما يمكن أن نقوم به لنبقى معا، وكان الحل الوحيد هو السفر إلى تركيا التي تعترف بالزواج المدني، عدت لأيام قليلة إلى سوريا أخبرت أهلي بما سأقوم به وقامت هي بنفس الوقت بإخبار أهلها بما نحن عازمون عليه لتبارك لنا كلتا العائلتين لتبدأ رحلة معاناتنا، انطلقنا من ميناء طرابلس في لبنان إلى تركيا..

لم تفارقنا المصاعب في تركيا من الناحية المعيشية، ومن ناحية توثيق زواجنا، وحتى من الجالية السورية هناك؛ التي اختلفت بين مرحب وبين معارض لما قمنا به باعتبار أنه أخذ ضجة إعلامية كبيرة تحت مسمى أول زواج مدني بالثورة، لكن كنا كلما واجهنا مشكلة نتذكر أننا عزمنا على مواجهة العالم كله فلن نقف عند هذه المشكلة مهما كانت كبيرة أو صغيرة.

توالت المشاكل وفي كل مرة نتخطاها لتكون درساً، ولنكتشف فيها شيئاً جديداً، لم نقطع صلتنا بالداخل السوري الذي رحب كثير من شبابه الثائر بزواجنا وباركوا لنا وأصبحوا كالأسرة الافتراضية من حولنا، ومنهم حسام..

حسام ذيب الشاب المهندس ذو المعرفة الواسعة بالإلكترونيات وهو من

مدينة السويداء جنوب سوريا ذات الأغلبية الدرزية، حسام الثائر الذي اختار أن يكون بصف الثورة مؤجلاً موضوع زواجه من حبيبته على الرغم من وضعه المادي الجيد، لكنه كان مصراً دائماً بأن "النصر بالوطن أولاً ومن ثم أتابع قضيتي الشخصية"، اعتدنا كل فترة أن نتحدث مع حسام عبر السكايب، فنحن في مدينة اسطنبول وهو في ريف دمشق الذي حاصرته قوات النظام بداخلها بعد أن كان يوصل الطعام للمحاصرين هناك، فما كان له إلا أن يلتحق بالجيش السوري الحر ليقاتل النظام دفاعاً عن نفسه وعمن يوجد في المنطقة، فأصبح يخدم الثورة بما لديه من معلومات وخبرة بالإلكترونيات ليصنع أجهزة التجسس والرصد كما يستخدم خرائط غوغل ليقصف مقرات النظام الأمنية التي تخرج الصواريخ منها على المدنيين في ريف دمشق، كما يساعد بنقل الجرحى والمصابين بما لديه من عضلات كبيرة فهو من منطقة جبلية وهذا ما أعطاه بنية جسمية ضخمة.

في يوم شتوي يتصل حسام عبر السكايب -كالعادة- ليقول لنا بأنه عازم على الرحيل من الغوطة، بعد أن اشتدت عليه الملاحقات وأخبرنا بأنه خلال الفترة الأخيرة نجا من ثلاث محاولات اغتيال، وأن هناك كتيبة إسلامية متشددة تلاحقه وتريد قتله لأنه درزي.

أخبرنا حسام الذي كان يلقب بأبي أيهم بأنه سيصل تركيا بعد أيام فأعطيته أرقام هواتف للتواصل معي، وفعل ذلك عندما وصل بعد أسبوع، حسام المرح على السكايب كان مرحاً أكثر على أرض الواقع، كان مفعماً بالحياة رغم التعب الذي يعانيه من مشقة الطريق والضغط النفسي، ذهبنا إلى المنزل ليرتاح قليلاً لكنه رفض النوم وأراد أن نجلس ونتحدث، وتحدثنا كثيراً وضحكنا كثيراً وتألمنا كثيراً لما رواه لنا من مآسي الداخل السوري.

لم تكن أيام حسام سهلة لكنه كان يقضيها بعزيمة ويتغلب على ما يواجهه من مصاعب دون علمه بمستقبله الغامض، حائر هو بين السفر باتجاه أوروبا أو العودة إلى سوريا، لكنه للأسف.. اختار السفر إلى أوروبا.

حسام الشاب الذي أفقرته الثورة، والذي بسبب عزة نفسه كان يرفض أن يتقاضى أي راتب لقاء عمله كان يملك فقط ألف دولار عندما دخل تركيا، وكان قد جمعها من خلال بيع "لابتوبه وموبايله" وبعض أغراضه الشخصية التي لم تعد مهمة بالنسبة له فهو لا يستطيع حملها معه إلى خارج البلاد، حمل فقط قلبه وثيابه التي يرتديها وحبه لوطنه، وتوجه بعيداً نحو رحلة المجهول على طريق الهجرة غير الشرعية ليتجاوز الحدود التركية ومن ثم اليونانية والصربية واتصل بنا بعد شهر من مدينة بلغراد العاصمة الصربية، لتنقطع لاحقاً أخباره... وكان الخبر المؤلم الذي وصل لنا بعد شهر من ذلك، أن جثة حسام موجودة في مشفى بالنمسا وقد استطاع شخص من مدينة درعا أن يتعرف عليها بعد أن بقيت لعشرين يوماً موجودة هناك تحت اسم شخص مجهول الهوية قضى بحادث سير.

هكذا حاول حسام أن ينتقل من النمسا إلى ألمانيا ليتقدم بطلب اللجوء هناك ويكمل حياته مع خطيبته، لكنه قضى بحادث سير قبل اجتيازه الحدود النمساوية، توفي حسام في بلد غريب بحادث سير حقير اعتيادي، وهو الشاب الذي نجا من محاولات الاغتيال ومن المعارك الحربية والقصف الصاروخي، هو أبو أيهم الذي نجا من الإصابة بالسلاح الكيماوي بعد أن تعرضت له غوطة دمشق بتاريخ 21/ 8/ 2013 أثناء إسعافه للمصابين، ليموت بحادث سير من قضاء الله وقدره.

أعطتنا قصة حسام جرعة كره إضافية نحو مسألة السفر لأوروبا فهي

الحلم الذي جعلنا نخسر كثيراً من الشباب السوري بسبب سعيهم للوصول إليها ظناً منهم أنها الحلم المنشود، فقررنا البقاء في تركيا والعمل ما استطعنا حتى نعود لوطننا سوريا متحدين كل المصاعب.. كما فعل حسام.
صحوت هنا من شرود الذهن الذي بقيت فيه لأقل من دقيقة بعد أن شاهدت هذه الأحداث الأقرب لشريط فيديو، ودعت أختي ببوابة المطار، توجهت إلى بوابة الميترو ممسكاً بيد لبنى.. لبنى زاعور التي حدثتكم عنها.

هنا الحلبي

ماذا غيرت فينا الثورة

في جلسة نسائية، صباح أحد أيام نهاية الأسبوع في عام 2009، وفيما كانت داليا تحدث صديقاتها عن عملها في المكتب الهندسي الجديد، دار الحديث التقليدي عن قصص احتكار آل الأسد لكافة المرافق الاقتصادية في سوريا، حيث تقول داليا "وبعد أن انتهينا من دراسة كافة تفاصيل المشروع وكدنا أن ننتقل إلى مرحلة التنفيذ، جاءت الأوامر من رامي مخلوف بإيقاف هذا المشروع مباشرةً "

كان المشروع عبارةً عن نادٍ رياضي، سيقام على رقعة واسعة يحوي ملاعب ومسابح ومساحات خضراء، حيث كان سيصبح المشروع الأول من نوعه في ثاني أكبر مدينة في سوريا.. حلب! انتهى الحديث بضحكات الفتيات الساخرة والعابرة، فلم يكن المشروع الأول الذي يوقفه رامي مخلوف في حلب ولا

في سوريا كلها.

فمنذ أن تسلم بشار الأسد الحكم في سوريا، وحمل شعارات الإصلاح البراقة، وفكر الانفتاح الاقتصادي والحضاري الذي سيقود سوريا إليه! ومنذ أن برز رامي مخلوف -ذلك الشاب المعجزة ورجل الأعمال العبقري- بشكل مفاجئ!

وفي الوقت الذي توسّم الناس خيراً بهذا الجيل الشاب المصلح من آل الأسد، الذي سيحرر سوريا من قبضة الانغلاق الحضاري والتخلف اللذين فرضهما حافظ الأسد على مدى ثلاثين عاماً، ما رأت سوريا منهم سوى المزيد من التخلف، والانزلاق نحو الهاوية.

قام حلف بشار الأسد ورامي مخلوف ببضعة مشاريع خجولة، كانت في ظاهر الأمر توحي بنية الإصلاح، ولكن في واقع الأمر ما استطاعت عقلية حكم الأسد السماح لسوريا بالانفتاح، أو بالخروج من بوتقة انغلاقها، وما استطاعت طبقة أصحاب رؤوس الأموال التي شاركت النظام الحاكم بأن تحدث فارقاً حضارياً للبلد، بل على العكس اضطر الكثير من المستثمرين ممن انساقوا لشعارات الإصلاح بدايةً أن يغادروا البلاد. وزاد الفساد، وغلاء الأسعار، وازدادت الطبقة الفقيرة فقراً وانحداراً خُلقياً ما شهدت له مثيلاً من قبل.

وإن انتهى حديث الفتيات المهندسات حينها بالسخرية، وتجاوز هذا الخبر، إلا أن رنا ما كان ليمرعليها هكذا خبر مرور الكرام.

رنا تلك الشابة المهندسة حديثة التخرج، المفعمة بالحيوية والتي يملؤها الحماس لخوض الحياة الهندسية في بلدها علّها تستطيع بأحلامها

اللامحدودة أن تُحدث قفزةً في فن العمارة في بلدها.
كان حديث من هذا النوع يترك أثراً عميقاً جداً داخلها، ويشعرها بالاستياء الشديد والحسرة على بلدها التي دمّرها حكم عائلة واحدة على مدى ثلاثين عاماً، وحوّلها من دولة مزدهرة ديموقراطية متطورة في الخمسينيات من هذا القرن، أبهرت يوماً ما إنساناً ماليزياً مثل الرئيس مهاتير محمد، وجعلته يحلم بأن يطوّر بلده لتصبح مثل "سوريا" حينها! لتصبح هذه البلاد بعد بضعة عقود بؤرة للتخلف والفساد.
رنا كانت يائسةً تماماً من أن يُعطى لبلدها الضوء الأخضر ليس فقط بأن يُطوّر، بل حتى بأن يُعطى شعبه الحرية ليُطوّر نفسه ويفك قيد تلك القوقعة التي منعته من مواكبة عصره، وكانت نقمتها تزداد يوماً فيوم على نظام الحكم في بلدها المسؤول الفعلي باعتقادها عن فرض هذه القيود، غير مدركةً "لسذاجتها السياسية" موقع سوريا الجغرافي!

– 1 –

و ذات ربيع جاء اليوم الفارق في تاريخ سوريا، وانطلقت صيحة الحرية في الخامس عشر من آذار 2011، لتهب وتنتفض عن بكرة أبيها في وجه الديكتاتورية.
تفجر حلم الشباب في أن ينتهي من حقبة سوداء، أثقلت كاهل هذا الشعب العريق وحرمته من أبسط الحقوق التي أعطاها الله له وهي حرية بناء بلده، وشعرت رنا كغيرها من آلاف الشباب السوري بشعور انتماء لهذا البلد، طالما حرموا منه وربما لم يشعروا به يوماً.
صدحت شوارع حلب بالحرية كغيرها من مدن سوريا، وامتزج طربها

الأصيل بأهازيج ثورية صاح بها شباب ثائر منطلق، طالما حلم -بل لم يكن يجرؤ حتى أن يحلم- بأن يكون عبق الحرية قد بات قريباً من متناول يده. تقاسمت الساحات الثورية خليطاً ثقافياً واجتماعياً غير مألوف مسبقاً، وتناغمت فئات من البشر بعمل ثوري متكامل، تناغماً ما فرّق بين ابن الحي الشعبي وابن الحي الغني، في الوقت الذي كان لا يعرف أي منهما الآخر بتاتاً حيث فرّقت بينهما طبقية مقيتة، ولم يكن حتى قد وطئت أقدام أي منهما حي الآخر، في حياته سابقاً.

روح الثورة

في خضم الخطى المتسارعة التي سارت فيها الثورة، وازدحام الأحداث، مظاهرات، اعتقالات، تعذيب، إطلاق نار حي، اتساع رقعة التظاهرات، نزوح، أعمال إغاثية، مساعدات طبية، مشافي ميدانية، و.. و.. و..

في وسط هذا المشهد المزدحم، عندما كان يتوقف المرء ليتأمل ما يجري في لحظة صدق مع الذات، يشعر بالانبهار، لا يمكن أن يصف ما يحدث إلا بالمعجزة، ولا يملك إلا إجلال وتقدير هذا الشعب العظيم.

الشعب، الذي كان ابنه الشاب المدلل أقصى ما يفكر فيه هو أن يتكلم مع تلك الفتاة، أو يستعرض بسيارته في ذاك الشارع، ذات الشاب أمسى اليوم مسؤولاً عن إسعاف صديقه بسريّة بعيدة عن أعين قوّات الأمن، أو الاعتصام أمام أفرع الأمن مع ما فيه من خطر الاعتقال للمطالبة بإطلاق سراح المعتقلات، أو تهريب الأدوية والمعونات الطبية بسيارته في الوقت الذي انتشرت فيه حواجز الأمن بكل حي، معتبرةً أن من يساهم في العمل الطبي أخطر على أمن الدولة من حامل السلاح!

حتى رنا نفسها، مع زملائها من الثوريين المهندسين، اتسع مدى حلمهم الذي كان يقتصر سابقاً على مبنى حديث أو مشروع متطور، ليصل إلى التفكير في إصلاح البلدية برمتها، والتخطيط لمرحلة ما بعد الثورة، وكيف سيتم التصرف بخزينة الدولة، وإصلاح البنى التحتية، والأنظمة المعمارية الجديدة التي كانت قد وضعت سابقاً على قياس مصالح المسؤولين، والمشاريع الخدمية، والطرقات، والمساحات الخضراء، وإعادة تخطيط المناطق العشوائية، ولم يتركوا مجالاً في بناء سوريا الحديثة إلا وفكروا به. مثلهم مثل كل فئات المجتمع، كل ضمن اختصاصه، بدأ يخطط لبناء دولة الحرية والقانون، ضمن منظمات سرية وبأسماء وهمية تعمل بالظل، تحت قبضة أمنية شرسة تتخبط يميناً وشمالاً بحالة هستيرية، وتلاحق كل من يملك أدنى فكر إصلاحي أو أدنى روح التمرد على الفساد والظلم.

لم تكن رنا تبالغ أبداً عندما كانت تعتبر أن أيام المظاهرات والحراك الشعبي هي أسعد أيام حياتها، تلك الشابة التي لم تبخل الحياة عليها بأي عطاء قبل الثورة، وكانت تعيش حياة مثالية كريمة ربما هي جُلّ ما يتمناه أي إنسان.

لكن ما عاشته رنا من روح الحياة الجماعية في ظل الثورة، وما ذاقته من حلاوة التضحية والعطاء بلا مقابل، وبذل النفس والروح والمال لنيل الحرية، تلك المفاهيم التي جعلتها وغيرها من الشباب يشعرون ولأول مرة بأن حدود مسؤوليتهم تتخطى الفرد والعائلة، لتشمل المجتمع، وأدركوا لماذا نادت كل الأديان السماوية ببناء المجتمع وإصلاحه.

– 2 –

في حين حاولت دائماً الأنظمة الحاكمة تربية الشعوب على مفهوم انحسار المسؤولية على نطاق الفرد الواحد حتى لا يتخطى فكره الإصلاحي جدران بيته الأربعة، وسخّرت تلك الأنظمة كافة المنابر الدينية لتُربي أجيالاً كاملة على فكرة إصلاح الذات لاغير.

بهذه الروح الحيوية، وبهذا التغيير الجذري في مفاهيم الناس، وتحديد أولوياتها، وتطلعاتها، كتب الشعب السوري أعظم ملحمة تاريخية، ألا وهي الثورة السورية.

ولكن مع طول عمر الثورة، ومع انتشار رائحة الدم، والأشلاء، والمجازر التي مورست بحق الشعب على مدى سنوات، وكل خيبات الأمل التي مر بها هذا الشعب، هل خبت هذه الشعلة؟

هل انطفأت روح الحماسة في نفوس الشباب الثائر؟!

– 3 –

نفق مظلم

" تشكيل أكبر تحالف دولي بأسطول جوي، سيتدخل في الحرب في سوريا، ولكن.. لمحاربة داعش"!

هذا هو الخبر الذي ضجت به قنوات الإعلام في شهر تشرين من عام 2014، والذي تابعته رنا من شقتها الصغيرة في اسطنبول، بعد أن مرّ على فرارها وخروجها النهائي من حلب شهراً واحداً، عاشت قبله أياماً عصيبةً من الهروب والاختباء بعد أن تم اعتقال كافة أصدقائها من رفقاء درب الثورة.

وفيما كانت رنا تُقلّب في قنوات الأخبار وتستمع لتفاصيل هذه الحرب

التي سيشنّها العالم أجمع على تنظيم متطرف أحمق أُريد له أن يحمل اسم الدولة الإسلامية، ليس صدفة، وإنما لدور أُعطي له كي يكون أسهل وأقصر طريق لتشويه الدين الإسلامي الحنيف.

" إذن وماذا عن بشار الأسد؟ "تتساءل رنا. إن كان تنظيم داعش صاحب الفكر المشوه المعتوه، قد قام بارتكاب جرائم، فهل تقارن عدد جرائمه بعدد جرائم بشار؟

بشار الذي استباح الدم السوري بمجازر وحشية استمرت لأشهر وسنوات، أليس إرهابياً؟ أليس مجرماً وسفاحاً لم يشهد التاريخ مثله من قبل؟

بشار الذي بدأ بقمع المتظاهرين بالرصاص الحي، وانتهى به المطاف بعد أربع سنوات بإبادة مدن بأكملها فوق رؤوس ساكنيها بمجازر جماعية يومية، ما وفّر فيها ولا أي نوع سلاح إلا واستعمله؟ أليس هذا أكبر عار ممكن أن توصمه الإنسانية على جبين المجتمع الدولي الذي نصّب نفسه مسؤولاً عن حماية الشعوب، ونادى بشعارات السلام وحقوق الإنسان؟! ليتدخل أخيراً، ولكن ليس ضد السفاح!

هل فعلاً أصيب المجتمع الدولي بالعمى عن مجازر بشار؟

ماعاد خافياً على أحد -بعد أربع سنوات من تصدّر الملف السوري لجلسات المجتمع الدولي، وتصدر الأخبار السورية لنشرات الأخبار- أن بشار ليس سوى أداة بيد قوّة عظمى أرادت بناء إمبراطوريتها على أنقاض كافة الشعوب العربية، من خلال سلب خيراتها وحرياتها، وتهجير نخبها، وتجهيل شعبها.

وما هذه الأدوار السياسية والخلافات الظاهرية التي وُزّعت على الدول الكبرى، إلا لعبة سخيفة ماعادت تنطلي على أحد، أو كأقل تقدير ماعادت

تنطلي على الشعب السوري الثائر.

بدأت رنا تسرد في مخيلتها كافة الحقائق التي اتضحت للشعب السوري خلال هذه الفترة العصيبة، فلم يكن وجود هذه الأنظمة العربية من قبيل الصدفة ولا حتى ضياع ثرواتها ونهبها من قبل حكامها أيضاً بمحض الصدفة، ولم يتم تهجير العلماء بطريقة ممنهجة من كافة الدول العربية من باب الصدفة أيضاً، ومن لم يحالفه الحظ بالهجرة يكون مصيره رصاصة في الدماغ أو في العمود الفقري على أقل احتمال.

عدم وجود الصناعات الكبرى في الدول العربية ليس بمحض الصدفة أبداً، واحتكار علوم الفيزياء ومصانع السلاح على جهات محدودة في العالم ليس بالصدفة أيضاً.

فها نحن شعب وبكل بساطة ترميه الطائرات بالصواريخ والبراميل المتفجرة يومياً فقط لأنه فكر بالتحرر، ولا يملك مجرد الحق بأن يشتري مضاد طيران يصد فيه الموت عن نفسه.

– 4 –

هل نستسلم؟

تسأل نفسها رنا هذا السؤال الذي خطر حتماً على بال كل شخص سوري.

صحيح أن هناك الكثير من عامة الشعب قد وصلوا إلى نتيجة الاستسلام، بمعنى الرغبة في الخلاص فقط مهما كانت النتيجة، ولا يمكن لأحد أن يلومهم بعد كل ماحدث، فالثمن الذي دفعه الشعب باهظ جداً، ولربما هذه هي النتيجة التي أرادت الديكتاتورية أن توصل الشعب الثائر إليها، كي لا يسأل إلا عن لقمة العيش وتوفر أبسط مقومات الحياة، التي سُلبت منه.

ولكن ربما هناك حقيقة غفل عنها المجتمع الدولي، أو القوة العظمى التي تدير رحى كل هذه الأحداث بالخفاء، أن هذا الشعب والذي وإن أُشربت نفوس الكثير منه الذل والفساد، على مدى أربعين عاماً، واستفحل فيه هذا الذل والفساد خلال هذه المحنة، لكن وبالمقابل ظهر منه فئة من الناس نضجت، ووعت لكواليس كل ما يحدث، وتغيرت أولوياتها في الحياة بعد أن مارست الحياة السياسية التي حرُمت منها لعقود، وذاقت حلاوة الحرية، والأهم من كل هذا حجم الغضب الهائل الذي تولد داخلها.

هذه الفئة لا يمكن لها إلا أن تستمر وهي تدرك أنه لاعودة إلى الوراء مهما حدث، وهي لديها يقين بأن ما يحصل في هذا العالم اليوم هو منعطف تاريخي عظيم، سيأتي من بعده تغيير في موازين القوى العالمية.

وربما على الديكتاتوريات الحاكمة أن تتذكر أن كافة ثورات العالم والمنعطفات التاريخية، والحركات الإصلاحية يقودها فئة قليلة من الناس، هي النخب.

رنا عن نفسها، أدركت أنها الآن أمام تحديين، من جهة هناك شعب كامل مُدمّر ومُنهك، فقد رغبته في الحياة وشُرد وهُجر، وأصيب بالكثير من الأمراض النفسية التي يطول علاجها، ومن جهة أخرى أدركت أن قضيتها ماعادت إسقاط نظام فقط، وإنما هي قضية ثورة على كل الأنظمة العالمية والمفاهيم الخاطئة التي نشأت في إطارها شعوب المنطقة على مدى عقود، بطريقة ممنهجة كي تُفسد النفوس وتستعمرها أخلاقياً وفكرياً.

كانت رنا تحلم بإعادة إعمار بلدها، لكنها الآن ترى أنها أمام مشروع بناء أهم من الحجر، وهو بناء الإنسان.

ذلك ما يجعلها تتخلى عن شغفها بفن العمارة، لتلتفت إلى التفكير بإعادة

هيكلة مفهوم التربية والتعليم بالكامل، وتدرك أنها مع رفاق دربها في الثورة، عليهم جميعاً النضال الآن ليستطيعوا تربية جيل جديد، قادر على فهم حقوقه في الحياة.

وأن نضالهم سيستمر حتى إحقاق العدالة الإلهية على الأرض، وتطبيق القوانين الإلهية التي تستطيع وحدها أن تضمن الحرية والمساواة لكافة البشر، على عكس القوانين البشرية التي وضعتها قوى عظمى، لتحقيق مصالح فئة قليلة من الناس على حساب حريات وحقوق كافة البشر.

رنا أدركت أخيراً أن هذه هي البداية فقط، ولكنها البداية لطريق النهضة، الذي سيُحدث أعظم منعطف تاريخي.

آنا بكسا

مجرد دقيقة ولكن!

كانت تلك الدقيقة المشابهة لغيرها من الدقائق التالية لسماع دوي انفجار ناجم عن سقوط أحد الصواريخ. هي دقيقة ولكنها تعادل ألف دقيقة بما يكتنفها من مشاعر ألم وحزن وتساؤلات.. تبدأ بمن وأين ومتى... إلى هل الجميع بخير؟
ماذا عن الموتى؟
وماذا عن الأضرار المادية؟
هل جميع أسرتي بخير؟! نعم إنها دقيقة تستطيع أن تمزقك إرباً إرباً، لأنك لا تعلم هل ستكون دقيقتك الأخيرة أم ستعيش بعدها! وكم عدد الدقائق التي يمكن أن تبقى فيها على قيد الحياة؟
كل هذا وأنا في غرفتي التي بدأت تضيق بي، تملؤها أشباح أفكاري في وضح النهار؛ أفكار تجعلك تموت آلاف المرات

وحتى إنك لا تعلم إذا كنت ستحيا بعدها.
تبدأ التساؤلات في هذه الدقيقة.. هل سأبقى هنا أم عليّ أن أسافر؟
أين يمكن أن أذهب وأكمل دراستي؟
لا يمكنني أن أبتعد عن عائلتي.. ومن أين آتي بكل هذه القوة لكي أخطو مثل هكذا خطوة؟!
ينتابني شعور بأنني أخوض حرباً داخل رأسي بين المغادرة أو البقاء ومحاربة الظلم والقهر.. والصمود.
أبعد الكتاب الذي كنت أقرأه وأذهب مسرعة أبحث في وسائل الإعلام لمعرفة ما حدث.. عدد الموتى والجرحى والأضرار.
هذه الدقيقة تبقيني جالسة بعدها ساعات لا أعلم ماذا عليّ أن أفعل، أو على ماذا أُقدم... الرحيل أم البقاء؟
ينتهي اليوم ولم أفعل شيئاً سوى التفكير في أسئلة لا أدرك إجاباتها. نعم أنهي يومي بدون أي تقدم فكري أو إجابة على أي تساؤل.
أنا الفتاة العشرينية، والعشرين هو عمر الإنجاز والتقدم وتحقيق الأهداف، ولكن أين هي طموحاتي في وسط ثورة فاقت أعداد ضحاياها قدرة مخيلتي؟
أين هي أهداف الشباب في وسط دولة لا تستطيع سوى أن تذل شعبها لمجرد أنه ثار على الظلم والقهر؟
أخلد إلى الفراش بعد يوم ساعاته تفوق ال 24 ومازالت صور ضحايا الانفجار في رأسي، ورائحة الموت تعبق بالمكان فهي لم تغب لحظة عن مخيلتي إلى أن غفوت وسط دموعي وجراح شعبي.

منال زيد

ثورة الأنا!

ربما تلك الثورة التي صنعناها لم تكن سيئة بالنسبة لي، إلى الآن وبعد دخول السنة الخامسة على انطلاقها لازلت أعتبر -وبعد دارسة الوقائع- أن الإيجابيات التي أعيش فيها لا بأس بها مقارنة مع السلبيات التي غرق بها أغلب البشر كلما طال عمر الثورة التي تحولت إلى حرب.

السبب ربما يكون شخصياً، إذ أعتبر نفسي أمتلك شخصية متحدية صانعة للثورات ضد العادات والأفكار المتخلفة التي لا تبنى على أي أساس منطقيّ، وكنت في كل مرة أنفض فيها غبار التخلف أتعرض للقمع من المجتمع المحيط.

أذكر في سنوات مراهقتي تبنيت كثيراً من "الأفكار النهضوية" شعارها "صناع الحياة" تحت تأثير داعية ديني فساهمت بشتى الوسائل لنشر ثقافة النهوض والرقي، وكانت أقرب دائرة مجتمعية لدي هي المدرسة فملأت جدرانها منشورات

تذكر بضرورة متابعة مثل هذا البرنامج، عملت أيضاً على ملء استبيانات عن البطالة، إلا أن الصاعقة كانت باستدعائي من قبل إدارة المدرسة وتهديدي بفصلي واعتقال والدي في حال استمراري بمثل تلك النشاطات، وبعد الإلحاح عن تفسير السبب جاء الجواب الذي لم أكن أتوقعه "تهمتك إنشاء حزب وتجمع، وهذا الشيء يخالف القانون بيشحطوكِ على بيت خالتك!"، ولأنني لم أقتنع أبقيت المنشورات على الجدران إلى أن جاءت "مدربة العسكرية "وأجبرتني على إزالتهم، وأصررت بعدها على متابعة هذا البرنامج إلى أن شعرت بأنه لا جدوى من تطبيق تلك الأفكار التي تحتاج لمجموعات من البشر لنجاحها..

حين تعود بي الذاكرة إلى الوراء بحثاً عن تحدياتي التي طورت حياتي وتفكيري، أذكر بأنني نفذت ذات يوم إضراباً لمدة ثلاثة أيام في حجرتي وتحديداً في سريري العلوي، استنكاراً لإجباري من قبل والديّ على دراسة علوم الدين والقرآن عند تجمع سيدات يطلقن على أنفسهن لقب "القبيسيّات" قدس الله سرهنّ!، لم يكن يعجبني تقديسهن "للآنسة الكبيرة" وتقبيلهن ليديها تعبيراً عن احترامهن لها، بالإضافة لعدم تطبيقهن ما يأمرنني بتطبيقه تحت مسمى حرام، ناهيك عن سياسة التمييز القاتلة... كل هذا ولأسباب أخرى، وجدت أن ذهابي إلى المسجد وابتعادي عن مثل تلك الأجواء ربما أفضل بالنسبة لي، وللأسف تحققت مطالبي المنشودة، بعد أن ثبت لي مع الوقت أنّ الكل أسوأ من الكل!

لم أكن الفتاة التي تحلم بفارس الأحلام الذي يمتطي الحصان الذهبي لذلك رفضت جميع محاولات الزواج، وفي وقت يعتبر الأشد توتراً عند أي مواطن سوري "فترة تقديم امتحان الشهادة الثانوية"، اكتشفت حب

شخص لي، كان بدأ منذ سبع سنوات مضت، ما جعلني أفكر بالأمر حقاً... فانفتاحه العقلي واعتدال توجهاته وقيمه الرفيعة وطريقة حديثه عن حياته ومخططاته وحتى عمله المدني لإصلاح النظام السوري في عام 2003، حتماً هو فقط ما دفعني للموافقة، لتبدأ بعدها حرب عائلية مناطقية تهدف إلى تغيير رأيي تحت شعار "يلي ما بياخد من ملتو بموت بعلتو"

لم ينجحوا!، بالنسبة لي شخصياً على الرغم من انفتاحي الذي لا بأس به ولكن لم يعلّمني أحد ما الذي يعنيه الحب، أو ماذا يعني الزواج، كانت فكرة الزواج بالنسبة لي عبارة عن شخصين أعداء يختلفان بأفكارهم وسلوكهم ورغباتهم يجلبون أطفالهم ليحملوا أسماءهم ويكونوا السبب الذي لا ينفصلون من أجله، وفي هذه الحالة يكون الطلاق نفسياً وعاطفياً.

بهذه الفكرة دخلت إلى حياتي الزوجية، وسرعان ما رزقت بطفل جميل، لم تكن حياتي هي المثالية كما كنت أطمح لكنها حياة مسالمة آمنة، على الأقل استطعت خلالها أن أطور نفسي ومهاراتي بشتى الوسائل بتشجيع من زوجي ومساعدته.

الربيع الداخلي!

حين "أزهر الربيع العربي"، ربيع التغيير كنا أول المشاركين في الاعتصامات والمظاهرات السلمية، الأمر الذي عرضنا للملاحقة الأمنية منذ أول شهر لبداية الثورة فخرجنا من منزلنا خوفاً من الاعتقال، ولكن "يلي بيخاف من العفريت بيطلعلوا"، وحدث ما كنت أخشى حدوثه؛ اعتقل زوجي بعد مداهمة شرسة، لم أكن أعي أنه فعلاً يوجد لاإنسانية علانية أمام الملأ، والجميع يتفرج ويصمت.

لم تكن ليلة عادية بالنسبة لي، بعدها أطبق عليّ حصار خانق من قبل أهلي الذين حذرونا سابقاً من عواقب من يثور على النظام السوري، الإساءة بالكلمات وتوجيه اتهامات الغباء والبلاهة خلق فجوة بيني وبين أفراد أسرتي، كثيراً ما اختلقت الحيل للهروب من المنزل والمشاركة بالاعتصامات المطالبة بإطلاق سراح المعتقلين، وفك الحصار، بل وطرقت جميع الأبواب من منظمات دولية وحقوقية علهم يستطيعون المساعدة بإخراج زوجي من غياهب الاعتقال، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل المحتوم.

أنشأت بعدها وأصدقائي تجمعات مدنية ثورية سرية "تجمع حرائر داريا، وجريدة عنب بلدي" بقيت أعمل دون علم أحد وكنت في كل مرة أترك طفلي عند أحد الأصدقاء، فتكون احتمالات اعتقالي ذات وقع أخطر حيث كثيراً ما سألت نفسي من سيهتم بطفلي؟! رغم ذلك تابعت دراستي الجامعية وبقيت أحرض صديقاتي المؤيدات للنظام فجمعت بين علمي وثورتي!

قصة مفصلية:

في يوم كئيب ارتفعت فيه أصوات القصف بقذائف الهاون -التي كانت شيئاً غير مألوف حتى ذلك الوقت- جاءت شقيقتي من منطقة إقامتها المشتعلة حيث كانت على وشك وضع مولودتها الأولى، سهرت طوال الليل وأنا أراقبها علها احتاجت شيئاً أو جاءها المخاض فجأة، وفي حوالي الساعة الثالثة صباحاً صرخت صرختها، ذهبت إلى المستشفى وبقيت أنتظر هل سيسمح لهم حاجز النظام بالعبور!

عبر الوقت وصلنا منتصف النهار تزامن فيه رنين هاتفي المحمول مع

هاتف المنزل، أخبرتني والدتي عن ولادة أختي لفتاة جميلة سمتها ميس، وفي المكالمة الأخرى كانت الصدمة زوجي يتكلم من سجن عدرا المركزي بعد 70 يوماً من الاختفاء، لم أكن أستوعب أن ما يحدث حقيقة فعلاً، هذا الشيء ربما نزع على شقيقتي فرحها بطفلتها بسبب توجه الأنظار فقط بأنني سأزور زوجي في سجنه.

حاولت جاهدة أن أبقى متماسكة طوال الطريق إلى السجن -الطريق إلى غزة- تعرضنا لمضايقات شتى وخاصة طفلي الصغير، كان وقع اللقاء حزين بالنسبة لعائلة زوجي لم أستطع أن أبكي أو أظهر بأنني ضعيفة أمام السجانين، بقي طفلي يبكي طيلة الوقت، وزوجي من خلف القضبان يروي لي ما حدث معه خلال الفترة الماضية في سجون المخابرات الجوية، وكشف لي ثيابه ليريني آثار التعذيب والطعنات والصعقات الكهربائية على جسده وهو يضحك والعالم من ورائي يبكي أو هكذا كنت أظن.

خرج بعدها من الاعتقال ولم أستطع أن أعبّر له عن حجم معاناتي أثناء غيابه، بسبب تدفق المهنئين بسلامته، ثم ما لبثت أن عادت قوات الأمن لمداهمة منزلنا بحثاً عن زوجي من جديد.

خروجه من الاعتقال لم يمنعني من الاستمرار بمشاركتي في المظاهرات السلمية المطالبة بإطلاق سراح المعتقلين، ولكن في هذه المرة كُشف أمري من قبل المخابرات الجوية فأوقفوني وعرفوا هويتي وبعد 25 يوماً استطاعوا القبض على زوجي ثانيةً ولكن في هذه المرة عرفت أن خروجه من الاعتقال أمر خيالي حقاً.

لم يكن يروق لي أن أعيش تحت رحمة أحد من عائلتي أو عائلة زوجي فقررت العيش في منزلي وحيدة، ومع بداية تصاعد الأحداث الأمنية

وحدوث مجرزة مروعة بحق المدنيين، استقبلت صديقات الثورة في منزلي وبقينا معاً نعمل -تحت ظروف صعبة وحصار- في إغاثة النازحين إلى منطقتنا .

و بعد أشهر استطعت عن طريق إحدى أعوان النظام التعرف على مكان اعتقال زوجي، إنه في سجن صيدنايا العسكري، بقيت حوالي سبعة أيام أحاول تقديم طلب لزيارته في الشرطة العسكرية، تزامن ذلك مع رداءة وسوء الأوضاع الأمنية في دمشق، إلى أن نجحت أخيراً وذهبت إلى السجن لزيارته، كان الطريق طويل جداً، تطغى عليه المظاهر العسكرية التي لم نكن نألفها بعد، كنت كعادتي متماسكة، امتدت فترة الزيارة فقط دقيقتين، صعقت خلالها بنحول زوجي وضعفه وتفاؤله في نفس الوقت، أول شيء سألني عنه "شو صار بمشروع "freedom" على الرغم من "محاوطة" العساكر له وتقييده من يديه، دقيقتان ربما أكثر ما يشعرني بالندم بعدهما هو وجود طفلي معي فيهما، لأنه - إلى الآن وبعد أربع سنوات- عندما يتذكر والده يذكره على تلك الحال، والطريقة التي انتهت الزيارة فيها ..

الصاعقة الكبرى!

بعد حوالي ثلاثة أشهر أجبرتنا قوات الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري على إخلاء المنطقة بسبب موقع سكننا الاستراتيجي، فخرجت ليلاً -دون قناعة- إلى منزل صديقتي، لأخرج بعدها إلى لبنان بهدف المشاركة في مشروع تدريب صحفي، وبعد مرور الأسبوع الأول اضطررت للعودة والإقامة في منزل أهلي الذي نزحوا إليه جراء الأحداث المتوترة.

هنا كان يجب عليّ أن أختار ما بين البقاء إلى الأبد في منزل عائلتي في

ريف دمشق أو الهروب إلى الأردن مع عائلة زوجي، وكلا الخيارين لم يكونا يروقان لي.
فكرت في أن أجرب حياة جديدة في الأردن وأعود إن لم أستطع العيش، ولكن في يوم خروجي تم اعتقال صديقاتي من قبل المخابرات الجوية وخيار العودة أصبح مستحيلاً، حاولت أن أتأقلم مع الوضع الجديد، تعرفت على صديق ساعدني على تخطي الأزمة والتخلص من العقبات التي تؤثّر على تربية طفلي بالطريقة التي أحلم بها.
تابعت عملي في المجال الإنساني، وعملت في مركز للدعم النفسي واكتسبت مهارات عدة، ومن ثم بدأت المشاكل بين الأطفال في منزل الغربة تتصاعد شيئاً فشيئاً، وتُشكل لدي ضغطاً هائلاً كان ضحيته طفلي الصغير.
لم أسلم من الكلام السيئ من قبل الأشخاص المحيطين بي، يتساءلون دوماً لماذا هذا الانفتاح غير المبرر!
سافر الصديق وبقيت وطفلي نعاني من نار الفراق، بعد أن تعودنا على وجوده ودعمه لنا، كان الملجأ الوحيد عند استعصاء الحياة في وجهي.
وبعدها بدأت أفكر جدياً بالانفصال عن عائلة زوجي والعيش مع طفلي وحدنا، ولكنه أمر مستحيل، لم يسمح لي والدي باتخاذ مثل هذا القرار ولا عائلة زوجي أيضاً. استغليت فرصة خروج صديقاتي من المعتقل وانتقالهم إلى لبنان لأنتقل وأعيش حياة جديدة كانت بدايتها مؤلمة، وتحد عظيم لم يكن أحد يدعمني خلاله لكنني اكتشفت بعدها بأن قراري كان صحيحاً فقد خرجت نهائياً ودون عودة من تحت جناح عائلتي وعائلة زوجي.
عشت مع طفلي في منزل قريب لأحد أصدقائي، عملت في المجال الذي وجدت نفسي به، قررت أن أغير دراستي، ودخلت الجامعة اللبنانية فرع

علم النفس، ومع مرور الأيام أخذت المضايقات المجتمعية تتصاعد كوني امرأة أعمل وأعيش وحيدة وأخالط أشخاصاً من الجنس الأخر، كما أعتبر إنسانة غير مبالية لكوني أظهر بمظهر الإيجابية والسعيدة وهذا حسب المجتمع يعتبر غير لائق تماشياً مع ظروفي.

بدأ الأشخاص يبتعدون عني حفاظاً على أنفسهم وتفادياً للكلام الذي يسيء لسمعتهم، وبدأ آخرون يتدخلون في حياتي الشخصية، ومازلت إلى لحظة كتابة هذه القصة أعيش نفس المعاناة، فبدأت أفكر بأمور ربما ستساعدني على تحقيق أهدافي؛ أن أكون امرأه عظيمة مميزة وأماً مثالية بنّاءة.

وماذا بعد؟

لا أهدف من كتابة أجزاء من قصتي الشخصية أن تكون مجرد قصة عابرة، يقرأها البعض وربما يشعرون بالحزن أحياناً أو السخف أحياناً أخرى، هدفي أن أوصل نتاج خبرتي وتجربتي لكم -ربما لم تكن ناجحة كما أريد- لتستفيدوا منها، في صناعة مجتمع ناسف للعديد من "العته" والتخلف.

فكلّ ما زادت التحديات أمامي كلما تطورت طريقة تفكيري أكثر، اكتشفت كم هي العادات التي نسلّم لها ونتبعها فقط لأننا أجبرنا عليها من قبل آبائنا الأولين؟، وأدركت كمية الثوابت والقيم والمعتقدات المجتمعية التي وضعت دون أساس ديني أو حتى عقلي، وكم من شيء حرّم علينا فقط تحت مسمى حرام! وكم من شيء أخفيناه بحجة "العيب"

اكتشفت بالأدلة القاطعة أننا نعيش حقاً في مجتمع مستبد اجتماعياً ودينياً وتعليمياً، ليس بسبب ظلم السلطة الحاكمة أو بسبب الثورات أو الحرب

والدمار، بل بسبب الاستكانة وعدم التفكير.
كم من أب أو أم مستبدَين تملّكوا أبناءهم طيلة حياتهم، وحاصروهم وأوغلوا بغرس أفكار التعصب في عقولهم خوفاً من غضب الله، وأنهم تفضلوا على أبنائهم بتربيتهم وتأمين متطلباتهم، ويجب على أبنائهم أن يفنوا حياتهم فقط لطاعتهم وتحقيق رغبات ذويهم التي لا تتناسب مع رغباتهم، وكم من رجل دين حرّم وأحلّ واجتهد وعلّم طلابه عادات لا تمت للدين بصلة، والكل خانع له لأنه مقدس.
وكم من مدرسة أو جامعة خرّجت أشخاصاً لا ينتمون للثقافة والعلم لا من قريب ولا من بعيد، وهم الآن مسؤولون عن تربية أجيالهم بالطريقة التي نشأوا فيها، بعيداً عن الثقافة التي اكتسبوها.
وبالمقابل لا أعتقد أن دول الغرب متحضرة ويجب الاقتداء بها لأن الغرب فعلاً لا يفتقر أيضاً للتخلف الموجود في بلادنا العربية، هنالك أشياء يتبعونها دون تفكير "هيك تعودنا"، ولا أعتقد الحل بالتغيير لأنه طويل الأمد وستبقى الشوائب متوارثة عبر الأجيال.
ربما الحل هو بنسف كل العادات والقيم والأنظمة الاقتصادية والسياسية، والبدء بتشكيل مجتمع جديد من الثائرين ربما المجانين لا يقلدون فيه أحداً، والبداية ربما تكون كما بدأ المجتمع الأول منذ عدة قرون بغابة لا مؤثرات فيها!

هذا الكتاب هو نتاج ورشة عمل بعنوان "القصة الذاتية"، أقامتها منظمة ABF السويدية لأعضاء الشبكة السورية للإعلام المطبوع (SNP) في مدينة اسطنبول التركية خلال شهر آب 2015، وقد شارك فيها 15 شابًا وشابة قدموا من سوريا ولبنان وتركيا.

من إصدارات الشبكة السورية للإعلام المطبوع

مكوّن لصحف سورية مستقلة:
سوريتنا، عنب بلدي، صدى الشام، تمدن، كلنا سوريون، عين المدينة، زيتون

تم إعداد هذا العمل بدعم مالي من الوكالة
السويدية الدولية للتعاون التنموي «سيدا»

لا علاقة لـ «سيدا» بالمنتج والمحتوى
تقع مسؤولية المنتج والمحتوى على الناشر